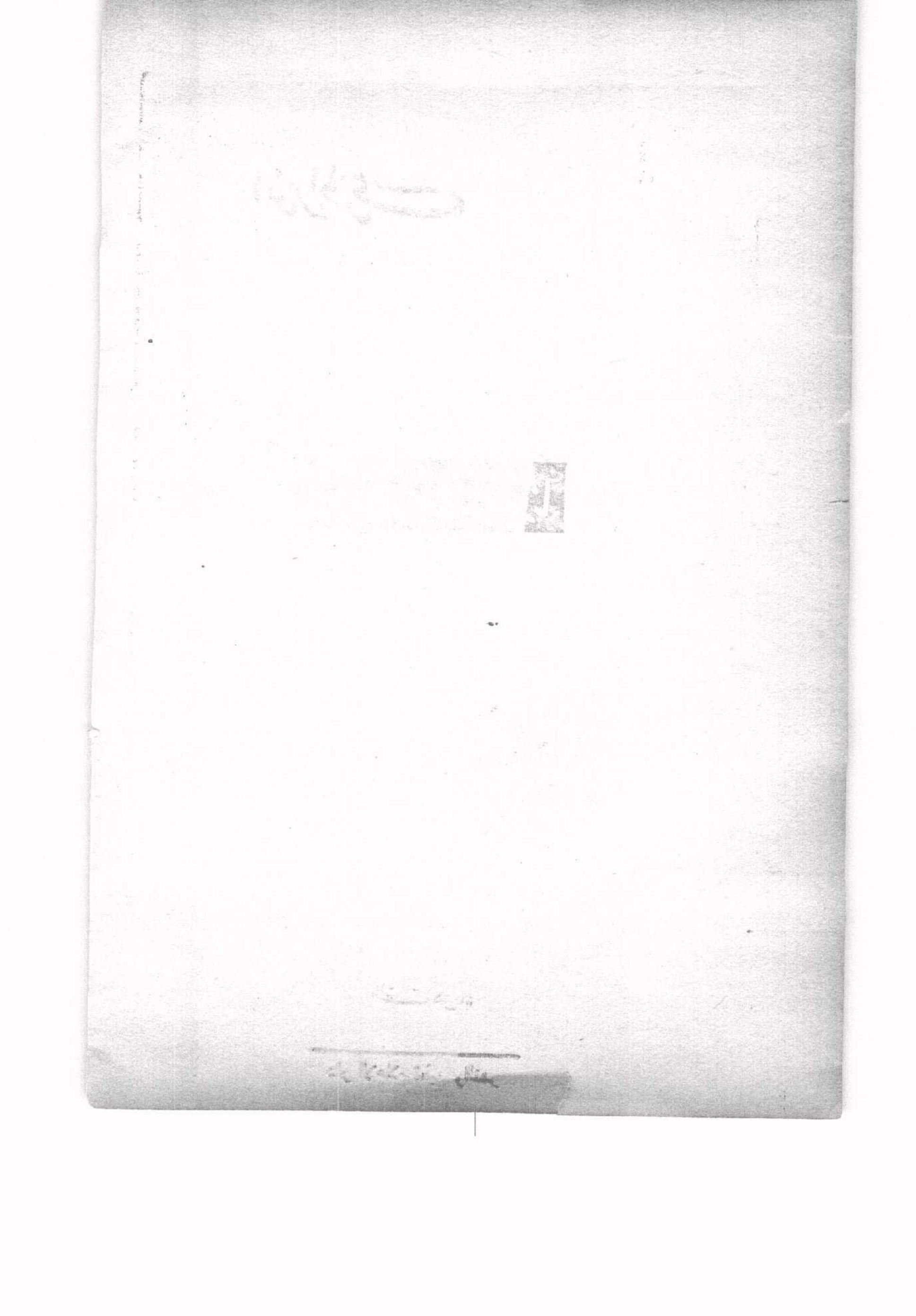
أنور الجندي

صفحات من أمجادنا

صدر في يناير ١٩٥٧
قبل مجلة (أضواء)

القاهرة

دار الاعلام للطبع والنشر



بلادى ..

بلادى مصر .. ما أحبها كلمة إلى نفسى ونفس كل مصرى .

ما أروعها كلمة تهز القلب . وتأخذ بالألباب وتشعرنى بمدى ذلك الجاه العريض والمجد الأثيل . مجد بلادى ، من غابر التاريخ وسالف الأزمان .

بلادى .. بلادى . لك حبى وفؤادى ، هذه العبارة التى قالها مصطفى كامل منذ خمسين عاما .. لم تكن جديدة ولكنها كانت قائمة فى ضمير الزمن منذ وقت طويل ، يتناقل صداها الأجيال وتتردد عبر القرون .

بلادى مصر ، التى أنشأت الحضارة ودوخت الفاتحين ، وكتبت الصفحات الرائعة فى تاريخ الإنسانية . وكانت السد القوى أمام كل جبار ، واليد الحانية لكل مظلوم ، والروح الرقيقة الحلوة لكل صديق .

بلادى مصر ، التى هزمت الهكسوس وصهرت الرومان وامتزجت بالعرب وردت الفرنسيين .

بلادى مصر ، التى طاردت كل محتل وهزمت كل دخيل وسحقت كل مستعمر وأرقت كل مستبد .

بلادى التى عاشت بالحب والسلام ، وعاشت للخير والبر ، وعاشت فوق الأحقاد والخصومات .

بلادى التى استقبلت كل الحضارات والنهضات فاخذت منها خيرها وحولته إلى كيانها . وظلت محتفظة بطابعها ومظهرها تذيب ولا تذوب ، وتطوى ولا تنطوى ، وتسيطر ولا تقهر :

بلادى التى صنعت التاريخ . ورسمت للشرق مجده ، وللروحية طريقها ، ومنها نبع الحب ، وبزغ سحر هاروت وماروت .

بلادى التى شهدت أمجاد الحرية وأعياد الجلاء عندما خرج آخر جندى بريطانى منها فغدت حرة بعد سبعين عاما من الاستعباد .

بلادى التى ظلت تقاوم ولا تهدأ ، ومضت تخاصم لاتلين ، وعاشت تجاهد الغاصب يوما بيوم ، خلال هذا العمر الطويل . لم تتوقف ولم تهن .

بلادى التى قاومت قبل الإنجليز الفرنسيين والأتراك والرومان والفرس وأذاقتهم العذاب المرير والتضحية الضخمة حتى أعجزهم البقاء فآثروا العودة قبل الفناء ، والإنسحاب قبل الهزيمة ، فكانت بحق مقبرة الغزاة .

بلادى التى حررها أحمس قبل الميلاد ، وحررها جمال بعد الثورة وسجل كلمته الخالدة : « فليحمل الاستعمار عصاه على كتفه ويرحل ، أو فليدافع عن بقائه حتى الموت .

بلادى التى هبت فى وجه المستعمرين فى كل مكان . فى القاهرة والاسكندرية

ورشيد والمنصورة ودمياط ودمنهور ، وفى كل مكان جمعت القوى وأقامت المتاريس وصنعت القنابل من حديد شبابيك المساجد .

بلاد التى استقبلت المهاجرين إليها من كل مكان وكانت موئل الراغبين فى الأمن من عسف الطغاة ، حتى وصفت بأنها عشر الأمم .

بلادى التى عاشت أشبه ببرج بابل ، جمعت من كل الشعوب والألوان واللغات والأجناس . جمعتهم على ود وحب ورعاية .

بلادى التى قدمت فى مختلف عهودها الشهداء من أبنائها فى سبيل الحرية والدفاع عن الكرامة .

بلادى التى جمعت بين الشرق والغرب والفرعونية والعرب والإسلام ، وتحطمت على شواطئها الغزوات والدعوات .

بلادى التى يقول عنها محمد كرد على عنها : إنها باريز العرب وعاصمتهم الأدبية شبيهة إيطاليا فى عهد النهضة وأواخر القرون الوسطى .

بلادى التى سار منها أمس ويسير اليوم وسيسير غداً شعاع من هذا النور الباهر فيعم خيره الأصقاع العربية كافة .

بلادى التى وصفها ابن بطوطه فى رحلته فقال :

« مصر أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر . ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل . وجاد وهازل . تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الأمم . وتملكت ملوكها نواحى العرب والعجم . ولها خصوصية

النيل التى جل خطرها ، وأغناها عن أن يشهد القطار قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير . كريمة التربة ، مؤانسة لذوى الغربه .

قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما ... هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فاولادها الولدان والحور عينها ... وروضتها الفردوس والنيل كوثر

ويقال إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطات والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة ، وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو .

« ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة . ليس فى المعمور مثلها . ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحراً غيره .

قال الله تعالى . « فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم » فسماه يماً وهو البحر . ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجـائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفافها ، وابتداء نقصه حين زياده الأنهر وفيضها .

وأول زيادته فى حزيران (يونيه) فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان ، فان زاد ذراعا كان الخصب فى العام . والصلاح التام . فاذا بلغ ثمانى عشرة ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء . وإن نقص ذراعا عن الستة عشره نقص خراج السلطان . وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد .

والنيل يفترق عن مصر بعد مسافة من مصر على ثلاثة فروع . ولا يعبر نهر منها إلا فى السفن شتاء وصيفا . وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا أمد ترعها فاضت على المزارع . » ا هـ كلام ابن بطوطه

بلادى التى لولاها فى أيام الجراكسة والترك لاضمحلت العربية ومقوماتها وتأخر نهوض العرب قرونا .

بلادى التى كانت مركزا للحركة الثقافية فى خلال الأجيال المتعاقبة ومنها خرج الأعلام البارزون الذين تركوا آثاراً لا تمحى فى تاريخ الفكر .

بلادى التى عرفت بالمناعة ضدكل حكم أجنبى . حتى أن قمبيز عندما تغلب على مصر فنى مع أهله فى القوميه المصرية . فتلقب الفرس بألقاب المصريين وعبدوا الآلهه المصرية .

بلادى التى شيدت من الفن آيات من الحجر . والمبانى ما تزال باقيــــة تبهر الدنيا .

بلادى التى ابتدعت من الفكر آيات من الشعر والأدب والتاريخ ماتزال حية خالده .

بلادى أول أمة زراعية فى العالم . وفلاحها أول من اخترع الفأس والمحرات والناصحة . وأول من حفر القنوات وأقام الخزانات والسدود . وأول من اخترع الكتابة وصنع الورق .

بلادى أول أمة ابتدعت قواعد الحساب والهندسة والفلك . وعلمائها أول من نبغوا فى الفلك . وأول من ابتكرت التقويم النفسى .

بلادى التى قاس علمائها الزمن واخترعوا المزاول لمعرفة الوقت نهارا . والساعات المائية لمعرفته ليلا . وأطبائهم أول من زاول الجراحة وبرعوا فى التحنيط .

بلادى التى لا يحدث حادث فى العالم إلا ويكون فيها صداه .

بلادى التى بها الأهرام الذى هو أقدم أثر مادى تركه الإنسان منذ خمسة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح . وكان مقيموه وواضعوا هندسته على قدر كبير من الذكاء . هذا الاثر الذى لم يصنع أحد من البشر حتى الآن شبيها له . والذى هو أجمل مظهر لهندسة البناء . تبدو أمامه ناطحات السحاب الامريكية صغيره تافهة .

بلادى ذات المناخ المعتدل . والحقول الزاهرة . والطبيعة الجميلة الغنية في الوجوه والأجسام . والثروة والمعنى . والخصب فى الزراعة والخامات ، والموقع الجغرافى الفريد .

بلادى التى بها النيل والأزهر وقناة السويس وسد أسوان وقلعة صلاح الدين والكرنك .

بلادى التى احتملت اضطهاد المسيحية . وثبتت له فى زمن الامبراطور دوقلديانوس فأصاب مسيحى مصر منه صنوف العذاب والقسوة لأنهم أبوا أن يقدسوه ! وكلما ازداد فى تعذيبهم ازدادوا تمسكا بدينهم فاسرف فى ذبحهم حتى لقب الأقباط أيامه بعصر الشهداء .

بلادى التى حولت البطالسة فجعلتهم مصريين . ومن قبل حولت الهكسوس. فانغمس كل منهم فى القومية المصرية فقلدوا ملوك مصر فى أسمائهم وعاداتهم ودياناتهم

بلادى التى هاجت أسطول قيصر وهو فى أوج مجده فاضرم النار فى أسطوله مخافة أن يظفر المصريون به .

بلادى التى نبغ فيها علماء وأئمة وأدباء وفلاسفة منهم : ابن نباته ، والقلشقندى والابشيهى وابن منظور وابن هشام والسخاوى وابن خلكان وابن دقاق والمقريزى وأبو الفداء والنويرى وابن تغرى بردى والسيوطى والدميرى وابن إياس .

بلادى التى قال فيها القدماء : إنها كنانة الله فى أوضه ، ونيلها الذى قيل فيه إنه من شرب منه عاد إليه .

بلادى التى قال فيها النبى محمد : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامه »

بلادى التى قال فيها جمال عبد الناصر : إن شعوب القارة سوف تظل تتطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة .

بلادى التى قال فيها مصطفى كامل « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

بلادى التى تتوسط القارات الثلاث ، والتى شاركت بأكبر نصيب فى الحضارة العالمية وأدت فيها دوراً خطيراً ، فعلت ذلك مصر الفرعونية ، فلما أصبحت مصر العربية قامت بدور آخر لا يقل عظمة وجلالا .

بلادى التى وصلت قواها إلى خط الاستواء وجبال طوروس ونهر الفرات ونجد وحضرموت والحبشة وكينيا وخليج عدن وبوغاز باب المندب وطرابلس

بلادى التى قاومت الغزاة فى كل فترة من حياتها بقوة . وجعلت ثراها مقبرة المعتدين .

بلادى التى يعيش بها رجل الشارع الذى لم يقبل الضيم أبدا .

بلادى التى ألقت أول درس من دروس الحضارة على العالم ووضعت أساس الأخلاق .

بلادى التى لم تكن غازية بقدر ما كانت ممدنة للشعوب .

بلادى التى ابتكرت الكتابة وطورتها من إشارات ورموز إلى حروف نقلها عنها الفينيقيون .

بلادى التى سجلت روح السلام فيها منذ عهد بعيد فى كتاب الموتى :

« .. إننى لم أقارف الشر ولم أعتد ولم أسرق . ولم أقتل غدرا ولم أكذب ولم أسل دموع احد . ولم اتدنس . ولم أتلف أرضا مزروعة . ولم أقذف . ولم أدع الغضب يخرجنى عن الحق ، ولم أزن . ولم ارفض ان اسمع كلمة الحق ولم الوث الماء . ولم احمل سيدا على ان يسيء إلى عبده .

لقد عشت بالعدل وتعذبت بالعدل . ونشرت الأفراح فى كل صوب ، واطعمت الجياع . وسقيت العطاش ، وكسوت العراة ، ومددت للغرقى يد النجـــاة .

بلادى التى قال فيها لافيس عضو الأكاديمى الفرنسى : « إن مصر كانت المعلمة الأولى للانسانية » .

بلادى التى كونت أول امبراطورية عرفها التاريخ فى أيام تحوتمس الثالث الذى وصل إلى جبال طوروس شمالا ، ونهر الفرات شرقا . والشلال الخامس جنوبا وغربا .

بلادى التى غزاها الليبيون فانصهروا فى البيئة المصرية فتطبعوا بطبائع المصريين وعبدو آلهة المصريين وقدموا لها القرابين .

بلادى التى هزمت قمبيز بعد أن قاومته مقاومة شديدة ، وفنى الفرس فى القومية المصرية .

بلادى التى هزمت الفرنسيين والإنجليز والتتار والصليبيين .

بلادى التى هزت الاسكندر الأكبر المقدونى، فقد زار واحة سيوه عقب دخوله إلى مصر وقبل لقب ابن أمون وأوصى بأن يدفن بعد موته فى ثراها

بلادى التى حقدت على كل غاصب . ولم يستطع الغاصبون أن يقهروا روحها أو يمسوا صميم قوميتها . ....

بلادى التى ظلت تحتفظ بطابعها القوى بعد أن أصبحت عربية وثارت على الولاة العرب عندما انحرفوا عن جادة العدل .

بلادى التى تحررت من سلطان دمشق ومن سلطان بغداد بعد مائة عام من الفتح الإسلامى وامتدت حدودها إلى جبال طوروس شمالا ونهر الفرات شرقا .

بلادى التى حمت الأدب العربى من الفناء فى دولتى المماليك بإيواء المضطهدين من المشتغلين به الذين لجأوا إليها من العراق وسوريا .

بلادى التى ثارت على العثمانيين ورفضت تعيين الوالى التركى ومنعته من دخول القاهرة .

بلادى التى كان ابنها المصرى هو أول من أوقد النار وطهى الطعام وصنع الآنية من الفخار .

بلادى التى ما تزال مدنها وقراها فى الفيوم والبدارى ونقاده وقنا والمعادى وحلوان والأقصر وتل العمارنة ، دليلا على أنها كانت مراكز القوة والحضارة منذ آلاف السنين .

بلادى التى أقامت فى « دسوق » مملكة « بوتو » التى كان رمزها نبات البردى وإلهها « جور » الذى يمثل النور المنبعث من نجوم السماء .

بلادي التى أقامت « منف » التى اسمها الآن البدرشين وميت رهينة عاصمة المملكة الاولى التى كان يطلق عليها « مدينة الجدار الابيض » .

بلادى التى أخرجت « أمحتب » العالم الذى بلغ قدراعظيما فى الدين والسحر والطب والهندسة حتى أطلق عليه « إله الطب » .

بلادي التي ابتدعت فن التحنيط الذي يلقى على الجثة بعد الموت ويحفظها من التحلل .

بلادى التى صنعت أعمدة الجرانيت الوردى ذات التيجان المزينة بنبات الوردي وزهرة اللوتس .

بلادى التىكان يقول شاعرها القديم إن السماء بحر عظيم يعتمد على عمد أربعة . وأن الشمس تولدكل صباح كما يولد الطفل . وتعبر السماء فى زورق سماوى حتى تصل إلى الغرب فتنتقل فى زورق ثان تسير به فى نيل آخر يخترق أرضا شديدة الظلمة ثم يعود ثانية فى الصباح .

بلادى التى جندت مائة ألف من الفلاحين فى بناء الهرم ، خلال عشرين عاما حملوا ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجرا يزن الواحد طنين ونصف طن .

بلادى التى قامت حضارتها القديمة على الإيمان بالخلود وأن الإنسان بعد موتها سيبعث حيا . ولذلك أقاموا القبور الضخمة لحفظ جثث الموتى ، وحافظوا على كل ما يستعمله الميت فى حياتهمن أدواتوآنية وطعام وشراب

بلادى التى أقامت بحيرة موريس « خزان الفيوم » وقصر اللابرنية عند هواره ، ومدينة « إهناس » قرب بنى سويف .

بلادى التى اكتشفت مناجم النحاس فى سينا . وبنى سوسرت الأول مسته المشهور فى المطرية .

بلادى التى قاومت الهكسوس طويلا حتى طردهم «أحمس» وتعقبهم فى فلسطين

بلادى التى أنجبت « حتشبسوت » ، التى شيدت معبد الدير البحرى فى سفح جبال طيبه ومسلتا الكرنك . وتحتمس القائد المصرى المحارب الذى غزا سبعة عشرة غزوة ، وأمنتحت الذى أسس بهو الأعمدة . والدهليز ذو الأربعة عشر عموداً فى الأقصر وطريق الكباش .

بلادى التى أخرجت أخناتون الذى قال إن الشمس لا تعبد لذاتها وإنما تعبد للحرارة الكامنة فيها ، وترك طيبة إلى تل العمارنة وتوت عنخ أمون الذى أدهشت العالم مخلفاته ، وتحفه وجواهرة وتماثيله وأثاثه المطعم بالعاج والمصفح بالذهب .

بلادى التى أخرجت رمسيس الذى ركب عجلته الحربية وحاول أن يخترق صفوف الأعداء واندفع بكل ما يملك من بسالة وإقدام . وظل يقاوم ثلاث ساعات حتى تلاحقت به جيوشه فنجا من الخطر وانسحب الحيثيون إلى قادش بعد أن كبدهم خسائر فادحه .

بلادى التى تركت فى كل مكان أثر . فى باريس المسلات الثلاث المضاءة وفى برلين تمثال نفرتيتى ، وفى لندن تمثال ايزيس .

بلادى التى كانت أعظم مراكز الحضارة الإسلامية . فامتدت منها إلى شواطىء البحر الأبيض حتى حدود فرنسا الجنوبية .

بلادى التى حملت جوهر الحضارة الإسلامية : العدالة والمساواة والمثل الأعلى .. بلادى التى أخذت تراث اليونان والرومان فترجمته إلى العربية ، وكانت اليونان قد أخذت منها التصوير والطب والمثالة والصناعة الدقيقة .

بلادى التى صنعت التاريخ وقامت بدور ضخم وشاركت فى صناعة الحضارة والمحافظة عليها . ومنها الطبيب الذى عالج أباطرة الرومان والمهندس الذى صمم « أياصوفيا » .

بلادى التى عاشت طوال حياتها حامية الحضارة وحارسة المدنيـــة ؛ وبها نصف المخطوطات العربية ، [illegible] العالم الإسلامى كله بعد أن استشرى ظلم عبد الحميد . ومن قبل نزح العلماء إلى مصر فى التماس الأمان . وكانت فى عصر المماليك هى القطر الإسلامى الوحيد القائم على قدميه ، والملجأ الوحيد الذى يستطيع أن يلجأ إليه صاحب العلم .

بلادى التى عندما هاجم التتار الشرق ركب ابن تيمية فرسه وجرى إليها يطالبها بأن تجند الجنود .

بلادى التى منها السيدة هاجر أم اسماعيل جد قريش ، والتى منها مارية القبطية زوج الرسول وأم ابراهيم .

بلادى التى كانت مقر الترسانة الإسلامية فى جزيرة الروضة ، وهى التى كسبت للأسلام قيادة الحوض الشرقى للبحر الابيض .

بلادى التى ذهب جيشها إلى إقصى الارض وعاد منتصراً : إلى المكسيك

والحبشة والسودان والحجاز والقرم وتريب ، والذى قاتل تحت أسوار عكا وفى مياه نفارين باليونان .

بلادى التى منها الفلاح الطيب الذى ينحنى على الارض السوداء يشقها ويخرج لنا خيراتها .

بلادى التى يقف فيها المسجد بجوار الكنيسة ، هذا يؤذن وذاك يدق ؛ وكل منهما يدعو إلى الله .

بلادي التى بها المصطبة فى الريف والناي والعود فى ضوء القمر والساقية بصوتها الناعس ، والشاعر بربابته الحلوه . وأذان الفجر فى ظلمة الليل .

بلادي التي عرفت حالى إله النيل عند قدماء المصريين . وهو الذى يجرى النهر العظيم بأمره . وهو فى تماثيلهم ونقوشهم متربع على عرشه متوج رأسه بأزهار البردى المفتوحة .

بلادى التى قدمت الشهداء فى سبيل الحرية ، طومان باى الذى شنق على باب زويلة وبقى معلقاً ثلاثة أيام لأنه قاوم الترك . ومحمد كريم الذى شنق فى قلب القاهرة لأنه حارب الفرنسيين . والجبرتى الذى قتل ابنه الأوحد لأنه سجل ظلم محمد على ، وحسن طوبار الصياد الذى قاد الثورة ضد الفرنسيين فى بحيرة المنزلة لجمع خمسمائة قارب من قوارب الصيد .

بلادى التى محمد فريد ضحى لها بألف وخمسمائة فدان وصحته وحياته .

بلادى التى قدمت عرابى الذى وقف فى وجه الخديو وقال له : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً ولا عبيداً ، فوالله الذى لا إله إلا هو أننا سوف لا نورث بعد اليوم .

بلادى التى قدمت عمر مكرم الذى عزل الوالى التركى وجاهد محمد على حين ظلم وتحول .

بلادى التى قدمت الشيخ العدوى الذى أفتى بعزل الخديو وقال أمام المحكمه عندما حاكموه باعلى صوته أن توفيق مارق من الدين والوطن .

بلادى التى قدمت عبد العزيز شاويش الذى هاجم قاضى دنشواى وهو فى منصب رئيس الوزراء .

بلادى التى قدمت أبطالا مجهولون جاهدوا فى كل وقت وفى كل معركة ، واستشهدوا مطمئنين إلى أنهم أدوا واجبهم . قدمت الرماة الذين قاوموا الأسطول البريطانى يوم ١١ يوليو عام ١٨٨٢ يوم احتلال الاسكندرية . فقد ابلوا بلاءاً كبيرا ونادرا خلف مدافعهم عندما اخذت البوارج تضرب الميناء

أدوا واجبهم فى العراء دون أن يخشوا الموت الذى كان يهددهم فى كل لحظة ولم يكن معهم دروع ولا متاريس ، وكان الرجال والنساء ينقلون الذخائر تحت نيران المدافع ويقدمونها إلى الطبجية الذين كانوا يطلقونها .

بلادى التى ظلت زهاء قرنين كاملين تقـاوم غارات الصليبيين فى مصر وفلسطين بقوة ، وبالرغم من أن الفرنجة تمكنوا فى المعارك الأولى من النصر والإقامة فى فلسطين فان مصر ظلت تسدد الضربة تلو الضربة وترد الصليبيين عن الثغور وتجند لكفاحهم كل ماوسعها تجنيده من قوى فهزمتهم فى المنصورة وفى دمياط وفى الشام .

بلادى التى شنقت رسل هولاكو وعلقت رءوسهم على باب زويلة واندفعت قواتها ترد المغيرين عن أسوار غزة فى موقعة عين جالوت فكانت هزيمة رائعة بعد أن قتل المصريون قائدهم كتبغا فتداعت صفوفهم .

بلادى التى ذكرت فى القرآن فى أربع وعشرين موضعا منها ما هو صريح ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير .

بلادى التى أنشأ بها بطليموس منارة الاسكندرية على ارتفاع أربعمائة قدم وعلى رأسها تمثال يحمل مصباحا . وكانت لها مرآة عاكسة يقال إن الناظر إليها يرى فيها ما كان يحدث فى مدينة القسطنطينيه ، وأن المرآة كانت تدار فتنعكس عليها أشعة الشمس القويه فتحرق السفن القادمة إلى الاسكندريه .

بلادى التى كان بها مكتبة الاسكندريه ذات المائة ألف مخطوط ، والتى كان من روادها ديمتريوس فالاروس وإقليدس واضع الهندسة ، وهيباسيا الفيلسوفة ، وقيلاتس عالم النحو ، وجالينوس أبو الطب ، وأرخميدس العالم وبطيلموس الفلكى مؤلف المجسطى .

بلادى التى وصفها الكاتب المجهول قديما فقال :

مصر تربه غبراء وشجرة خضراء . طولها شهر . وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر . يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر منه عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عج عجاجه و تعاظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب، فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا فى شدته وطما فى حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ، فيبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فعند

فلك يعود حلاوه ويفنى ذبابه . فبينا هى يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، وإذا هى زبرجدة خضراء . فتعالى الله الفعال لما يشاء .

بلادى التى بها الوادى الأخضر والصحراء الصفراء والجبال العالية ، من حولها البحر الأحمر والبحر الأبيض ، وسينا التى تلقى الوحى فيها موسى .

بلادى التى زارها عيسى صبيا . وتولى فيها يوسف على خزائن الأرض .

بلادى التى بها النيل الذى كان له فى الزمن القديم سبعة فروع ، لم يبق منها سوى فرعين . النيل الذى أحبه الفراعنة وعبدوه وعدوه إلها حتى أنهم كانوا يزينون له فتاة بكرا فيطيبونها ويعطرونها ويحملونها أجمل حليها ولآلئها وجواهرها ثم يلقونها إليه قربانا .

بلادى التى بها النيل الذى قالت الاسطورة الفرعونيه أنها دموع الإلهة وهى تبكى زوجها وأخاها أوزيريس ، فهى التى تملأ مجرى النيل فيطغى الماء على جانبيه ويروى الارض .

بلادى التى بها النيل الذى قالت الاسطورة القبطيه عنه إنه نقطة مباركة تنزل من السماء وترتبط بعيد سيدنا ميكائيل إذ وضع النيل تحت رعايته حيث تجتمع الملائكة فى الليلة السابقه لعيده فيقدمون الحجاب الذى يفصل الله عز وجل عن الملائكة ، وهناك يقفون لا يستطيعون التقدم ، ويتقدم ميكائيل فيخترق الحجب ويلقى بنفسه أمام رب العزة ويطلب الرحمة بالمصريين ، فلا يرفع رأسه حتى يكون النيل قد زاد .

بلادى التى بها النيل الذى رفض عمر بن الخطاب أن يلقى إليه بالعروس وألقى إليه ورقة مكتوب فيها أنه ينبع من عند الله لا من عند نفسه .

بلادى التى وصفها البغدادى وقال :

« ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ،

ذات الاقاليم العريضة والبلاد الاريضة ، المتناهية فى كثرة الثمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة . بجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ؛ وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيــه .

تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها ؛ شبابها يجد على طول العهد ؛ وكوكب تعديلهـــا لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الامم ، وتمكنت ملوكها نواحى العرب والعجم .

صفحات من أمجادنا

— ١ —

ليس هذا تاريخاً ، ولا هو بالبحث العلمي ، وإنما هو حديث قوامه الايمان بأمجادنا . والثقة بأننا ، نحن ، العرب أبناء الإسلام والشرق قد صنعنا الحضارة قديماً في مصر ، ثم تلقفناها من اليونان والرومان فحفظناها وزدناها ، وكنا في خلال قرون طويلة وفي هذه المنطقة الممتدة من الصين إلى أسبانيا قادة الفكر وسادة العالم ومعلمي الشعوب ، وما تزال ، أمجادنا ، حية نابضة بالقوة كالمنار تهدي وترشد . وترسم للعالم كله صورة الكرامة والرجولة والإيثار والوفاء والبعد عن الدنايا والترفع عن الذل والحقد والغدر .

إننا اليوم نستعيد مجدنا ونأخذ مكانتنا ونتجمع في سبيل مستقبل ضخم . إن الدور اليوم علينا لنصنع الحضارة الجديدة التي يترقبها العالم ، الحضارة

التى طالما تطلع إليها المفكرون والفلاسفة ورسموا صورها أصحاب المدنية الفاضلة الحضارة التى تقوم على الشرف والكرامة والمساواة ونصرة المظلوم وتأييد حق الضعيف ، الحضارة القائمة على مزاج من الروح والماده .

إننا نحن وحدنا الذين نستطيع أن نقدم الضياء للانسانية فى هذه الجولة بعد ان كاد يعميها الجشع والظلم والطغيان والحرب .

إننا وحدنا الذين نستطيع أن نشرق الفجر للبشرية كلهـــا بعد ذلك الليل الطويل الذى قاساه العالم فى ظل حضارة الغرب الممعنة فى الطغيان والاستعباد

إننا وحدنا ، بأدياننا وروحيتنا وأجناسنا السوداء والصفراء نستطيع اليوم أن نلقن الرجل الأبيض درساً فى مبادىء الكرامة وأن نوقظه من ذلك الحلم الخادع يوم كان يتخذ منا معبراً إلى مطامعه وأن نوقفه عند حده ونسحق مطامعه وماديته .

*

نحن الذين قال رجل منا . « أحب من الرجل إذا سيم الخسف أن يقول « لا » بملأ فمه » .

نحن الذين قال فينا الذين قابلونا عند فتح مصر « رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة . والتواضع أحب من الرفعة . ليس لأحد منهم فى الدنيا ولا نهمة . جلوسهم على التراب . وأميرهم كواحد منهم . لا يعرف رفيعهم من وضيعهم . ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة فلا يتخلف عنها حد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

نحن الذين فتحنا الدنيا فلم نفرض ديننا ولم نستكره أحد . وأبحنا حرية العقيدة وحمينا البيع والكنائس والمعابد .

نحن الذين ترك قائدنا خالد لأهل المدينة المفتوحة إدارتهـا .

نحن الذين سمع قائدنا رجلا يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين فغضب

وصاح « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما يكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال .

نحن الذين قال أبو بكر لقائد من قوادنا :

« إذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم ، وأبدهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فاوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم .

واسمر بالليل مع أصحابك تأتيك الأخبار وتنكشف عنك الأستار وأصدق اللقاء . ولا تجبن فيجبن الناس .

نحن الذين عندما طلب قائدنا من الخليفة إرسال مدد إليه . أرسل إليه أربعة رجال وقال له : لقد أمددتك بأربعة آلاف ، فيها أربعة رجال الواحد منهم بألف رجل وهم : الزبير بن العوام ، عبادة بن الصامت ، مسلمه بن مخلد، والمقداد بن الأسود .

*

نحن الذين رسمنا لقادة الحرب أعظم صورة من صورة البطولة فى ذلك الخطاب الذى وجهه أبو بكر إلى عمرو بن العاص :

« قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك ، ولا تقطع أمرا إلا بمشورته . اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستحييه فى صلواتك . فانه يراك فى عملك ، وأرد بعملك وجه الله . وإياك والوهن . وإياك أن تقول رمانى ابن قحافه فى نحر العدو ولا طاقة لى به . واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فاكرمهم واعرف حقهم ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم . وإياك وخدائع النفس ، وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك والصلاة ثم

الصلاة أذن بها إذا حل وقتها واحذر من عدوك ، وأمر أصحابك بالحرس ، وكن أنت بعد ذلك مطلعا عليهم . أطل الجلوس بالليل إلى أصحابك . وأقم بينهم ، واتق الله إذا لاقيت العدو . وقدم قبلك طلائعك فيكونو أمامك .

إذا وعظت فأوجز ، وأصلح نفسك ، تصلح لك رعيتك ، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، والزم أصحابك قراءة القرآن واعرض عن زهرة الدنيا .

نحن الذين علمنا الدنيا « الفروسية » التى كانت شروطها التقوى والشجاعة والقوة والفصاحة والمهارة فى ركوب الخيل والسيف والرمح والقوس والتى كانت من أقوى ما نقله الصليبيون بعد زيارتهم للشرق . وقد ازدهرت فى الأندلس فى ظل قرطبه وأيام الحاجب المنصور .

نحن الذين فككنا الحصار عن قلعة إزيكا بعد أن وجدنا أن التى تدافع عنها امرأة .

نحن الذين كنا كراما عندما أسرنا لويس التاسع فى المنصورة ووضعناه فى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان فأمناه وفككنا أسره هو وزملائه دون أن يصيبهم أذى .

نحن الذين هزمنا الصليبيين فى موقعة حطين ، والتتار فى عين جالوت .

نحن الذين كان قائدنا صلاح الدين وفيا كريما بملوك أوربا بعد هزيمتهم . فأعفى العجزة والفقراء والشيوخ من دفع الفدية وتسامح مع النساء . وأرسل الطبيب لعدوه رتشرد قلب الأسد ، وسمح للبطريق بأن يخرج سالما وهو عدوه ومعه تحفه وكنوزه دون أن يتعرض له أحد .

نحن الذين حرقنا مراكبنا بعد أن عبرنا حدود الأندلس بقيادة طارق

وعبرنا جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير .

نحن الذين حاصر قائدنا يسر بن أرطاه بأسطوله القسطنطينية ثلاث سنوات متواليات .

نحن الذين كنا سادة البحر منذ القرن الثالث الهجرى فغزونا بمعاويه بن أبي سفيان جزيرة قبرص ، ثم غزونا صقلية ورودس واقريطش وسردانيه وجزائر البليار .

نحن الذين قبضنا على ناصية المياه الجنوبية والوسطى فى ذلك البحر الشاسع الذى كان يتوسط العالم القديم .

نحن الذين غزونا روما مدينة القياصرة مرتين ، وغزا بحارنا المسلم غلام زرافة ثغور الدولة البيزنطية . واقتحم مجاهد العامرى وأبو القاسم الشيعى عاصمة الروم .

نحن الذين استعملنا النار اليونانيه فى حصارنا للشواطىء الإيطالية وجزائر البحر الابيض وفى معارك الصليبيين وفى معارك دمياط . فادهشنا خصومنا وزلزلنا قواعدهم .

نحن الذين بنينا الاساطيل الضخمة واتخذنا من ثغور أفريقيا دوراً للصناعة البحرية لبناء السفن المختلفة .

نحن الذين بسطنا سلطاننا على صقلية والمقاطعات الجنوبية من إيطاليا وجبال الالب وجنوب فرنسا فترة لا تقل عن قرنين حيث حفرنا اسمنا بحروف من نار فى كل مكان هناك وجعلنا إيطاليا مركزاً من مراكز الثقافة العربية

نحن الذين أدخلنا إلى فرنسا وإيطاليا أكثر الاصطلاحات البحريه فى ألقاب ضباطها وتعابيرها الحربية واستعمال بارود المدافع والقنابل والحراقات والقذائف واصطلاحات الصيد وعلم الفلك واسماء الكواكب .

نحن الذين تركنا فى اسبانيا آثاراً للفروسية والحرب والشهامة .

نحن الذين قابل رجالنا « يزدجرد » إمبراطور الفرس يحملون له دعوة الإسلام ويخيرونه بينه وبين الجزية أو السيف . فلم يطق صبراً على ما سمع . وأخذ الغضب منه كل مأخذ وقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم . . لا شىء لكم عندى . . ثم أمر بوقر من تراب وقال : احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . وصرخ فيهم قائلا : ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أنى مرسل إليه « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية .

واهتز عاصم بن عمرو فرحا ، وتقدم من الامبراطور وحمل التراب على عاتقه وهو يقول : أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء . . وسار يحمل التراب وركب راحلته وانطلق مع أصحابه ودخلوا على سعد وهو فى حصن قديس وقال له عاصم : « أبشر فقد والله أعطانا الله أرضهم »

وقيل أن يزدجرد تطير بعد ذلك وغضب وقال : إن الذين خرجوا من المدائن بترابها إنما خرجوا معهم بأرض فارس . . وقد كان .

ونحن الذين عرفت صفوفنا أمثال البراء بن مالك . . عنـــدما تحصن مسيلمة بالحديقة فى غزوة اليمامه ، وفكر المسلمون فى محاصرتها بحثاً عن ثغرة تتيح لهم فتح بابها الضخم . وظل البراء زائغ البصر حتى وجد مكانا فطلب إلى المسلمين أن يحملوه ويلقوه عليهم فى الحديقة فقال الناس لا تفعل يا براء . . ولكنه أصر على قوله . . فرفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، ولم يطل تردده إذ ألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة . وظل يضرب بسيفه يمنة ويسرة حتى فتح الباب للمسلمين فدخلوا منه زمراً يقتلون فى عنف ويسحقون خصومهم سحقاً . .

ومنا خالد بن الوليد الذى أريد له أن يذهب إلى الشام ، فاختار الطريق

الأشق .. والتمس رافع بن عميرة الطائى دليلا له ، فلما جاءه قال له : إنك يا خالد لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال .. والله إن الراكب المنفرد يخشى فيها على نفسه ، إنها خمس ليال لا يصاب فيها ماء ..

فقال له خالد : لا بد من ذلك فر بأمرك . قال : استكثروا إذن من الماء فمن استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل . فانها المهالك إلا ما دفع الله .. وطلب إلى خالد أن يجيئوه بابل سمان ، فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها حتى إذا بلغ بها العطش مبلغه أوردها الماء عللا بعد نهل . فلما امتلأت صر أذنها وشد مشافرها لئلا تجتر . وانطلق خالد بن الوليد بالجيش يتقدمه رافع قضوا خمسة أيام يسيرون فى وحشة الصحراء . وينزلون كل يوم فيأ كل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عدد من هذه الإبل التى اتخذوها خزانات ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل حتى بلغوا آمنين .

ومنا « سعد بن أبى وقاص » الذى وصل مع رجاله إلى شاطىء دجلة فوقف على شاطئه ينظر وينظرون إلى تدافع مياهه ويفكرون فى وسيلة لعبوره وهم يرون على مد البصر « المدائن » فى عظمتها وقصر كسرى فى بهائه ، وانتهى به الرأى إلى أن يعبر مع رجاله على خيولهم . وتقدم عاصم بن عمر ومعه ستمائة من أهل النجدة فساروا حتى بلغوا شاطىء دجلة ، يريدون أن يعبروا أولا ليحموا الفراض من الجانب الآخر ، فلما وجد بعض رجاله يترددون ، تلا قوله تعالى « وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلا » ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه . فلما رأى القعقاع بن عمرو الكتيبة الأولى تتقدم فى سبحها . ونظر فاذا الفرس على الجانب الآخر من النهر يتأهبون لردها ، أمر سائر أصحابه الستمائة ، فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه ، وتولى الفرس العجب لهذا الصنيع . فلما رأوا عاصماً وأصحابه يتوسطون النهر أرسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج . وليقاتلوهم فى الماء ،

ورأى عاصم هذا فقال لأصحابه : الرماح الرماح .. اشرعوها وتوخوا العيون وارتدت خيول الفرس حين أصابت الرماح عيونها .. وخرج عاصم ومعه كتيبة الأهوال سالمين .. ورأى سعد قوة أصحابه فاندفعوا جميعاً ألوفاً مؤلفة وساروا فى النهر كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما كانوا يتحدثون على وجه الأرض .

أما عاصم فقد أمر أصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها ، فجعلت تنقل من المسلمين من لم يعبر على جواده .

ولم يفقد المسلمون رجلا واحداً ، وخرجت خيول المسلمين من الماء تنفض أعرافها صاهلة .

ودخل المسلمون القصر الأبيض ـ قصر كسرى ـ وأقام به واتخذ الإيوان وصلى سعد شكراً لله صلاة الفتح ثمانى ركعات بتسليمة واحدة .

ووجد سعد فى خزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ثلاث مرات أى تسعة ملايين دولار ، ووجدوا بالقصر من التحف والأمتعة ما لا تعرف قيمته .

وتاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر ، وجاء عصمة بن خالد بسفطين فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجامه كذلك . وفرس من فضة مكلل بالجواهر ، وفى الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب . كل ذلك منظوم بالياقوت .

*

ومنا « أبو محجن الثقفى » الذى قيده سعد فى معركة القادسية وتركه فى خيمته وكان من فرسان العرب ، فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس فى أذنيه صعد بحر أغلالة يطلب إلى سعد أن يدفع به فى المعركة ولكن سعداً رده ، فذهب

إلى زوجه سلمى يطلب إليها أن تحل قيده وأن تعيره البلقاء. فرس سعد وأقسم بالله إن سلمه الله أن يرجع فيضع رجليه فى القيد.

ومنا «عمر بن الخطاب» الذى كان يصاحب المحاربين بروحه ويعيش معهم وهو فى المدينة يتسقط أنباءهم، ولا يذوق النوم إلا لماما، ساهراً ليله يسأل الله ويدعوه. فلما كانت موقعة نهاوند التى أطلق عليها فتح الفتوح، خرج مبكراً يتلمس الأنباء. وقد توقع أن ترسل له من يحمل الخبر، وقد صدق حدسه، فقد لقى طريف بن سهم يحث خطا دابته إلى المدينة، فاستوقفه وسأله فذكر له ما أنعم الله به على المسلمين، فعاد معه إلى المسجد حيث أذاع النبأ، ولكنه لم يلبث أن خرج مرة أخرى يريد أن يقف على تفاصيل جديدة، ومضى هو وجماعة من أصحابه يمعن فى الطريق الذى يؤدى إلى فارس. فاذا بهم يلقون السائب بن الأقرع فسأله عمر عما وراءه؟ فقال: البشرى والفتح. قال عمر: ماذا فعل النعمان؟ قال: زلت فرسه فى دماء القوم فاستشهد، قال عمر: إنا لله ولم يتمالك أن بكى، ثم أخذ يسأل عن غيره فذكر له أعيان القوم وأشرافهم ثم قال، وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين. قال عمر: ماضرهم ألا يعرفهم عمر، لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة.

ومنا أهل المغرب الذين قاموا بأعمال الفتح الخاطف ومطاردة السفن، وأنزلوا بالموانى الأوربية كثيرا من الأذى. وكان ذلك رداً على قرصنة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا.

كانوا ألوفا من المسلمين الخارجين من الأندلس ينضمون إلى سفن المغاربة لتدرك ثأرها من الأسبان الذين آذوها .. لقد أغاروا على سواحل أسبانيا وفرنسا يأسرون من أهلها ويعودون بالغنم الوفير.

نحن الذين كان لنا فى ميدان الفكر والعلم والبحث دور خطير ، هذا الدور الذى صوره جوستاف لوبون بقوله «كلما أمعنا فى دراسة حضـارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم ظهرت لنا حقائق جديدة ، وآفاق واسعة . وسرعان ما رأينا أن العرب هم أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علمياً سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلا وأخلاقاً . وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه فى وقت قصير ، وأنه لم يفوقهم قوم فى الإبداع الفنى .

وتأثير العرب عظيم فى الغرب ـ وهو فى الشرق أشد قوة ـ ولم يتفق لأمة العرب من النفوذ / والأمم التى كانت لها السيادة كالآشوريين والفرس والمصريين والإغريق والرومان قد توارت تحت أعفاء الدهر ، ولم تترك لنا غير أطلال دارسة . وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون غير ذكريات . . والعرب وإن تواروا أيضا إلا أن عناصر حضارتهم لم تزل . وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم حية ، بيقاء أكثر من مائة مليون شخص متبعين فيما بين المحيط الأطلسى وقلب الهند لشريعة الرسول . »

نحن الذين أكد المؤرخون أنه لو لم نظهر على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون .

منا واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأبو ذر الغفارى رأس الاشتراكيين ومعاذ بن جبل أستاذ مدرسة مكة فى الفقه ، وزيد بن ثابت أمير مدرسة المدينة وعبد الله بن مسعود رئيس مدرسة الكوفة ، وأبى عربى القائل بوحدة الوجود

والثورى وأبو حنيفة والحسن البصرى ومالك والشافعى وابن حنبل .

منا الأوزاعى عالم أهل الشام الذى أفتى فى سبعين ألف مسألة .

منا ابن جرير الطبرى الذى وضع أول تاريخ كامل فى اللغة العربية ، عاش بين عام ٧٣٨ — ٩٢٣ مفكراً حراً نزيهاً جبار الذهن ، يعد كتابه من أهم مصادر التاريخ الإسلامى .

منا الجاحظ أكبر عشاق الكتب المولعين بها . والذى مات بوقوع الكتب عليه ، وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به وهو جالس داخلها .

منا البيرونى أول من عرف الهند بأنها شبه جزيرة ، وأول من قال أن قمم العالم هى التبت فى آسيا ، والبيرنيه والإلب فى أوربا ، والذى كشف كتابه تاريخ الأمم عن دراسات فى الفلك والسلالات عدت كنزا ضخما فى الفلسفة والعلوم .

منا أبو الفداء الذى قال إن الأرض كروية تطفو فى مركز الوجود وقال لو إن رجلان ابتدآ بالسير واتجه أحدهما شرقا والآخر غربا فانهما يتقابلان . . ولكن الرجل الذى يتجه شرقا يصل إلى مكان اللقاء قبل الاخر بيوم .

منا الكندى أعظم أطباء الإسلام . والذى كتب ما لا يقل عن ٢٠ مؤلفا فى الطب . وقد وصل إلى حد البراعة فى علم الجرعات على اسس حسابية

ومنا أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الذى كانت شهرته تضارع شهرة « رازس » وقد زادت مؤلفاته فى الطب على المائتين اهمها « الهادى » الذى أحاط بجميع ما وصل إليه اليونان والسريان والعرب الأوائل ، وقد اشتهر بأنه أوله من كتب بتوسع فى أمراض الاطفال وشخص أمراض المثانة وكان من أعظم الإخصائيين فى علم الولادة ، وفى علاج أمراض المجارى البوليـــة بالحقن ، حتى قال الدكتور روبنسون : إن الرازى كان يعالج الامراض التناسلية كما نعالجها فى أيامنا هذه ، وإليه ينسب اختراع الفتيلة فى الجراحة .

ومنا « أبو القاسم الزهراوى » أعظم جراح عرف فى العصور الوسطى » وإليه يرجع الفضل فى معرفة ما يقرب من مائتى آلة ومبضع . وقد ظلت طريقته هى المتبعة فى أوربا الوسطى إلى مدى خمسمائة سنة . وكان عالماً فى طب الأسنان ، وهو أول من كتب إحصائيه صحيحة لامراض النزيف الدموى .

ومنا « على بن عيسى » صاحب أكبر مؤلف عرف فى ذلك الوقت . وهو تذكرة الجاهلية فى طب العيون تناول فيه طبيعة العين وكيفية تشريحها ، كما تناول بالشرح ٣٠ مرضاً من أمراض العيون . ووصف ١٣٠ دواء كان يستعملها فى علاج هذه الأمراض .

ومنا « ابن سينا » الذى يعد بمفرده دائرة معارف ، والذى كتب فى الفلسفة والطبيعيات وعلم الفلك والطب مالا يقل عن مائة وستة وخمسين مؤلفاً .

قال « جورج سارتون » عنه أن مؤلفاته ظلت الأصل والمرجع للكتاب والفنون إلى أجيال عديدة بعد موته ، وكتابه (القانون فى الطب) هو المرجع الوحيد لجامعات أوربا خلال القرن السابع عشر . وقد تضمن ما يزيد على مليون كلمة .

ومنا « المسعودى » الذى أمضى ربع قرن فى الطواف بالمملكة الإسلامية الواسعة . ومنا « ابن بطوطه . ابن حوقل . أبا الحسن . والناصر سليمان » وكلهم من الرحالة الذين كتبوا مجلدات ضخمة عن مشاهداتهم .

ومنا « الخوارمى » الذى وضع جداوله الفلكيه المعروفة استناداً إلى كتاب الفزارى الذى ترجم رسالة الفلك الهندية فجمع مابلغه اليونان والهنود فى هذا العلم وزاد عليه أموراً جديدة .

ومنا « سنان بن ثابت بن قرة » الطبيب الذى كان يمتحن الأطباء ويعطى الإجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية . وقد اجتاز الامتحان على يديه

ما نيف على ستمائة وستين .

ومنا « على بن حزم » الذى نسب إليه ابن خلكان والقفطى أربعمائة مجلد فى التاريخ والدين والحديث والمنطق .

*

ومساجدنا كانت مراكز هامة للحركة العلمية فى مساجد البصرة ودمشق وبغداد والقاهرة كانت حلقات الأدب والجدل والشعر .

وفى مصر كانت مساجد عمرو وابن طولون مراكز ثقافية ثم أصبح الأزهر أهم المراكز الفكرية . كما أنشأ المأمون بيت الحكمة فى بغداد ، وكان عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . وكانت مجالس الخلفاء والأمراء مجالس بحث وفكر . وقد حرص الخلفاء على العناية بترجمة الكتب . وقد ترجم حنين بن إسحق للخليفة المنصور بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب وكتاب إقليدس فى الهندسة .

وفى عهد المأمون زادت حركة النقل والترجمة من اليونانية والفارسية ؛ وشجع البرامكة المترجمين .

وكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه أهل الكلام .

واستقدم المأمون من القسطنطينية المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وفى أصبهان والرى أقام الصاحب بن عباد وأبى الفتح بن العميد مراكز ثقافية ذات أهمية كبرى .

وكان بلاد الحمدانيين فى الموصل ثم فى حلب حاضره سيف الدولة . كانت تقصد وفود الأدباء وتعقد حلبات الشعراء .

وبخارى التى وصفها الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر كانت فى الدولة السامانية

مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر .

ونقل السلطان محمد الغزنوى كثيراً من المؤلفات إلى غزنة . وكانت بلاد خوارزم شاه مقصد كثير من العلماء الذين نبغوا فى كل فن .

وذخر بلاط الطولونيين فى مصر بالعلماء والمتحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين أمثال : القاضى بكار بن قتيبة ، وأبا الفيض ذا النون المصرى ؛ والربيع بن سليمان ، وابن عبد الحكم صاحب فتوح مصر والمغرب والأندلس .

وحرص الخلفاء الفاطميون على اقتناء المؤلفات النادرة لنشر تعاليمهم . وكانت قصورهم مراكز لنشر الثقافة ؛ بها مكتبات تحوى مئات الألوف من المصنفات وكان تجار الكتب يعرضون على موظفى مكتبة القصر الشرقى الكبير فى القاهرة أندر الكتب التى يعثرون عليها ، وكثيراً ما كان الخليفة يركب إلى خزانة الكتب فى هذا القصر ليقرأ .

وقيل إن خزانة الكتب الفاطمية بها أربعون قسما كل قسم يشمل على ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة . وبلغ عدد الكتب بالخزانة نحواً من مليون وستمائة ألف تتناول الفقه والنحو واللغة والتاريخ وسير الملوك ، وعلم النجوم والإلهيات والكيمياء . ودخل ورق الكتابة إلى بلادنا فى أواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند . وقبل ختام ذلك القرن شاهدت بغداد أول معمل للورق ثم تلته تدريجياً معامل أخرى .

وظهر أول معمل للورق فى مصر عام ٩٠٠ م . وفى مراكش عام ١١٠٠ م وفى أسبانيا عام ١١٥٠ م . ثم ظهرت ضروب مختلفة من الورق منها الأبيض

والملون . ووصلت صناعة الورق إلى أوربا المسيحية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر عن طريق الأندلس وإيطاليا .

وكان سوق عكاظ يقام فى شهر ذى القعدة على مسافة قريبة من مكة .. فيجتمع فيه الحجيج ، وهم فى حمى الأشهر الحرم ، فيتصاولون ويتساجلون ويتعارضون بالرأى والشعر .

وكان الشعراء أمثال النابغة والأعشى ، والخطباء أمثال عمرو بن كلثوم وقيس بن زهير . والكهان أمثال قيس بن ساعدة وأمية بن الصلت ينتظمون فى حلقات مشهورة فيها المدح والفخر والوعظ ، وينصرف الرواة إلى بلادهم وقد سمعوا الاخبار والقصص وعرفوا الجديد من أنباء الفكر والادب .

أما المكاتب .. فقد روى أن مكتبة القاهرة كانت تشمل فى القرن الحادى عشر الميلادى على كرتين فلكيتين . وكان فى كل مسجد مكتبه ، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد . ويقال إن خزانة الكتب فى (مرو) كانت تحوى كتب يزدجرد لانه حملها إليها وتركها وكان الملوك يتفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام ولع شديد بالكتب .

وكان الحكم صاحب الاندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا الكتب عند أول ظهورها ، وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة .

أما فى مصر فكانت للخليفة العزيز خزانة كتب كبيرة ، وقد ذكر أن عنده كتاب (العين) للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل بن أحمد ، وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار

وقال المقريزى : إن خزانته كان بها ألف وستمائة كتاب . ولما يمض على تأسيس بغداد ثلاثة أرباع قرن حتى أصبح فى حوزة العرب أهم كتب أرسطو الفلسفيه ونخبة من كتب الشروح لأهل الفلسة الأفلاطونية الجديده ، ومعظم كتب جالينوس العلمية وطائفة من الكتب العلميه فارسيه وهندية .

*

وكانت قرطبه أكثر المدن الأسبانيه حضاره ، وكانت مثار إعجاب العالم . وكان الرحالة الأوربيون يعجبون بهذه المدينة التى تحوى سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور ؛ وكان يقصدها أمراء ليون ونافار وبرشلونه حين يحتاجون إلى جراح أو مهندس أو مطرب كبير .

وتأتى طليطلة بعد قرطبه فى مراكز الثقافه .

وفى سامان كانت مكتبة نوح بن نصر عديمة المثل . فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولاسمع باسمه فضلا عن معرفته .

تلك أمجادنا التى قال عنها المؤرخون : إنه لو لم يكن الإسلام لسارت أسبانيا فى نفس الطريق الذى سلكته فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا فكانت مشعل النور الذى أضاء أوربا فى الفن والعمارة والموسيقى والأدب ، وقد بقيت عاملا هاما فى الفكر الأوربى حتى فجر العلم التجريبى الحديث .

ومن أسبانيا انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا . ومن صقلية العربية أيضا انتقلت الحضارة إلى إيطاليا حيث انبثقت فيها بعد النهضة الايطالية .

وعاش الشريف الإدريسى فى صقلية وهو أعظم الجغرافيين القدماء على

الإطلاق فى بلاط روجر ، وألف كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) .

وكان فردريك الثانى حاكم صقليه يجتمع بالعلماء المسلمين من دمشق و بغداد وأنشأ أول وأكبر جامعه فى أوربا هى جامعـــة نابولى (١٢٢٤ م) وزودها بمكتبه عربيه درس فيها أرسطو بشروح الفيلسوف الاسلامى ابن رشد !

وترجم روبرت تشستر كتاب الخوارزمى فى الجبر وهو أول من ترجم القرآن إلى اللاتينيه ، كما ترجم ميخائيل سكوت التراث اليونانى عن العربية .

وترجم حنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) كتب جالينوس وأبقراط ، وكتاب السياسة لأفلاطون . والمقولات والطبيعيات لأرسطو . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب .

ولكن ماذا كان مصير هذه الثروة الضخمة من الكتب الإسلامية ؟

لما أغار هولاكو التترى على بغداد عام ٦٥٦ أمر بالقاء كتب العلم التى كانت فى خزانتها فى نهر دجلة ، كما أمر أن تبنى بجزء من الكتب اسطبلات للخيل ومزاود بالورق بدلا من الآجر والطين .

ولما فتح الفرنج طرابلس الشام فى الحروب الصليبيه أحرقوا دار كتبها بأمر قائدهم الكونت برتران دى ماتجيل .

وأحرق الفرنسيون كل الكتب المطبوعة والمخطوطة التى وجدوها بمكتبات قسطنطينيه عندما فتحوا الجزائر .

أما الكردينال كنيس مطران طليطلة فقد أمر بجمع جميع الكتب والآثار العربية فى غرناطه وتنظيمها أكداساً فى ساحات المدينه ، واحتفل باحراقها كعمل من أعمال الإيمان .

ويقدر بعض المؤرخين هذه المخطوطات بأكثر من مليون مجلد .

وشبت النار فى الأوسكوريال فى أواسط القرن السابع عشر لحرقت عدة آلاف التهمتها النيران . ولم يبق من هذا الكنز الفريد سوى ألفى مجلد .

وحرق ٦٠٠ ألف مجلد أيام غارات البربر .

وقد بلغ من ثروتنا هذه ثلاثين ألف كتاب ، فى حين أن بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضعة مئات ، فقد كتب الكندى واحد وثلاثون ومائتان والرازى مائتان ، وابن حزم أربعمائه ، والقاضى الفاضل مائة ، وعبد الله بن حبيب عالم الأندلس ألفاً .

وذكر جيبون فى كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان فى طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلد أحرقها الفرنج عام ٥٠٢ هجرية .

ووجد فى مكتبة الأوسكوريال قواميس عربية يونانية . وأخرى عربية لاتينية .

نحن الذين حولنا أسبانيا مادياً وثقافياً فى بضعة قرون لجعلناها على رأس جميع الممالك الأوربية . ولم يقتصر تحويل العرب لأسبانيا على ذلك بل بشهادة المؤرخين الأوربيين أنفسهم . كان لنا الأثر الواضح فى تعليم الناس « التسامح » الذى هو أثمن ما تصبو إليه الإنسانية .

وعلى حد قول « سيديو » عن جامعة بغداد : إن أهم ما اتصفت به منذ البداءة هو روحها العالية الصحيحه التى كانت سائده فى استخراج المجهول من المعلوم ، والعلل من المعلولات ، ومن عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة

والترصد . وقد كنا فى القرن التاسع الميلادى حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل فكان عاملا فى اكتشافاتهم المفيدة .

وقد سجل المؤرخون الاوربيون أن العرب كانوا أساتذة الأمم الاوربيه عدة قرون . وأنهم لم يطلعوا على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب ، وأن جامعاتهم لم تستغن عن تدريس ما نقل إلى لغاتهم من مؤلفاتنا إلا منذ زمن قليل .

وأجمع المؤرخون على أن حضارتنا دامت حتى بعد زوال سلطاننا السياسى وأن ميلنا الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم قد جعلنا نضرب بسهم وافر فى المباحث الرياضية والفلكيه والطبيعية والكيماويه والطبيه .

ونحن الذين أقمنا فى القرن التاسع الميلادى أول إرصاد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع ، وكان ذلك فى جند سابور وفى دمشق وبغداد .. وقد جهزت تلك المراصد بآلات فيها مقياس الارتفاع والاسطرلاب والساعة الشمسية .

كما أننا عرفنا علم الكيمياء وأدخلنا التجربة الموضوعية ، ويعد جابر بن حيان الذى ظهر فى الكوفه عام ٧٧٦ أبو الكيمياء العربية . وقد نقل جابر عدداً غير قليل من كتبه إلى اللغه اللاتينيه . وقد نقل كتابه « الاستتمام » إلى اللغة الفرنسيه عام ١٦٧٢ مما يدل على قوة نفوذه العلمى فى أوربا أمداً طويلا.

وتتألف من كتب جابر بن حيان موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء فى عصره . وقد عرف جابر خواص بعض الارواح . . واشتملت كتبه على بيان كثير من المركبات الكيماوية التى كانت مجهولة قبله ،

كالحامض النترى وماء الذهب والبوتاس وروح النشادر .

وهل نستطيع أن ننسى أبو القاسم القرطبى المتوفى سنة ١١٠٧ وهو أشهر جراحى العرب ، والذى اخترع كثيراً من آلات الجراحة ورسمها فى كتبه . وقد وصف عملية سحق الحصاه فى المثانه وإخراجها ، التى عدت ظلما — كما يقول جوستاف لوبون — من اختراعات العصر الحاضر . والذى قال عنه هالر ، العالم الطبيعى الكبير أن كتبه كانت المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر .

*

ونحن الذين أدخلنا العلوم إلى أوربا عن طريق أسبانيا وصقليه وايطاليا فى سنة ١٠٣٠ م أنشىء فى طليطلة مكتب للترجمه ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغه اللاتينيه اهم كتب العرب ، وترجمت مؤلفات علمائنا كالرازى ، وأبى القاسم وابن سيناوابن رشد . كما نقلت كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ككتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس وبطليموس .

نحن الذين كان لنا على حد قول ـ لوبون ـ استعداداً ذهنيا مكننا من دراسة أمور العالم الذى كان جديداً فى أعيننا يمثل ذلك الاستعداد الذى فتحناه به .

ولأدعه على عبارته :

« .. ولم يتقيد العرب فى دراسة تلك الحضارة التى واجهتهم فجأة ، بمثل التقاليد التى أثقلت كاهل البيزنطيين منذ زمن طويل ، وقد كانت الحرية من

أسباب تقدمهم السريع ، ولم يلبث أن تجلى استقلال العرب الفكرى وخيالهم وقوة إبداعهم فيما ابتكروه . وقد رأينا أنه لم يمض سوى وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائر الفنون فى مباحثهم العلميه وطابعهم الخاص الذى يبدو لأول وهلة من آثارهم .. فلقد أبدع العرب من فورهم ، بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس حضارة جديدة أفضل من تلك الحضارات التى جاءت قبلها .

نحن الذين كانت قصورنا حديث الدنيا : الزهراء وتاج محل والحمراء وسر من رأى ، ومسجد قرطبه ، وقصور الناصر فى قرطبه ، والعزيز بالله فى القاهرة وبنى بويه فى الرصافة ، وبنى حمدان فى حلب . وبنى عباد فى إشبيليه ومعاويه فى دمشق ، والمأمون فى بغداد .

فالزهراء بناها الناصر فى أربعين عاما ، يتوسطها قصر الزهراء الذى يزينه ٤ آلاف عمود من المرمر ، كانت من روميه وأفريقيا وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينيه وفيها الرخام الأبيض والأخضر الوردى والمجزع . وكان رداهه مبلطة بقطع من الرخام المنقوش بمهارة على ألف شكل ، وكانت حواجز هذه الردهة مغطاة بالمرمر ومزخرفه بالأفاريز ذات الألوان الباهرة . وكانت جسور هذه السقف وترابيعها الأرزية دقيقة الصنع . وكان من بعض رداهه عيون تصب مياهها الصافيه فى صهاريج رخاميه ذات أشكال منوعة أنيقه .. وكان فى ردهة الخليفة عين مصنوعة من اليصب ومزينة بأوزة عجيبة الشكل من الذهب عملت فى القسطنطينية ، وكان يعلو هذه العين الدرة اليتيمة التى أتحف الناصر بها قيصر الروم .

وبنى فى الزهراء البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها وأحواض الرخام المنقوش فى أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب .

وبنى فى وسطها حوضاً منقوشاً بتماثيل آدمية جىء به من القسطنطينية

وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى بصورة أسد بجانبه غزال وتمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجانب الآخر حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجرى الماء من أفواهها .

وقد أنفق فى بنائها ٢٠ مليوناً من الدينارات ، وعمل فيها عشرة آلاف رجل ، و ١٥٠٠ دابة .

وضمت الزهراء قصور الكامل والمجدد والروضة والمعشوق والمبارك والسرور والبديع .

وإذا ذكرت الزهراء ذكر جامع قرطبة وأبوابه التسع المصفحة بالنحاس الأصفر إلا باب المقصورة فإنه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء ، وفى بيت المنبر حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت فوق أغشية الديباج . والمصحف موضوع على كرسى من العود الرطب بمسامير الذهب .

وتاج محل .. الذى أنشأه الملك شاهيجان عام ١٦٣٠م ليضم ضريح زوجته التى أحبها بعنف ، فعزم على إقامة مزار لها أجمل من كل ما شاده بنو الإنسان فدعا مهندس الشرق إلى التسابق فى وضع رسمه وحمل من أقصى البلاد على جلب أغلى الحجارة لرفعه ، وقد عرف أنه أنفق فى سبيل إنشاء هذا الأثر المعظم ستين مليونا .

وقد عمل فى إقامة « تاج محل » أكثر من عشرين ألف عامل فى خلال اثنين وعشرين عاما .

وبنى « تاج محل » من المرمر الأبيض فى وسط قاعدته فسيحة رخامية تعلو خمسة أمتار على وجه الأرض وتمتد مائة متر من كل جانب . ويقوم على زوايا تلك القاعدة أربع منائر . ويلمس ماء النهر أسفل إحدى جنباتها وتحيط الحدائق ذات النبات الجميل بجنباتها الثلاث الأخرى إحاطة تأخذ بمجامع القلوب . ويحف حول تلك الحدائق سور ذو شرفات ، وتدخل من بابه كبير أنشىء على الطراز الفارسى .

ولتاج محل أبعاد كبيرة . وترتفع قبته عن سطح الأرض ثمانين متراً . ويدخل من أربعة أبواب يبلغ ارتفاع كل واحد منها عشرين متراً ، ويرى فى وسط تاج محل ضريح شاهجهان وضريح زوجته المحبوبه .

وقد صنع تاج محل من المرمر الناصع المصقول . ويكاد البصر يختطف من نور هذا البناء العجيب حينما تلقى الشمس أشعتها عليه . ولذا يكون نور القمر الشاحب أليق بتاج محل الأنيق ، وأن كل ما يمكن الفن أن يجود به من الكمال قد صبه فى تاج محل الساحر . فترى فيه الجدران المرمرية المنقوشة بما لا يتصوره الإنسان من الزهور والورد والزخارف العربية الزاهيه ، وترى فيه الأعمدة الصغيرة الهيف والأطر العالية والأروقة النيرة والنقوش المتدلية والفسيفساء المتقنة الثمينة الباهرة ، وترى فيه كتابات جميلة من الرخام الأسود .

وهناك قصر المغول فى دلهى الذى بناه شاهجهان ١٠٤٨ م وهو من أجمل القصور الإسلامية التى أقيمت فى بلاد الهنـــد وفارس ، وما فى رداهه من الفسيفساء المشورة كقطع من الحلى . وهو من أعجب ما شاده البشر . وقد ضن به البرابرة الذين دوخوا دلهى غير مرة ونهبوها فلم يخربوه . وقد هدم

الإنجليز جميع أجزائه التى رأوا أنهم لا ينتفعون بها .

قال روسله « إن أبهة ذلك القصر مما لم تسمعه أذن ، وقد زينت أساطينه وخباياه وأطرفتيه بالنقوش العربية العجيبة الزاهيـة ، وتهب الشمس وقتما تلق أشعتها على فسيفساء ذلك القصر من خلال خباياه الحياة لطاقات زهوره المصنوعه من اللازورد والعقيق واليصب ومالا يحصى من انواع الحجارة الثمينه

وإذا نظرت إلى الفرجتين المصنوعتين من المرمر الناصع رأيتهما مثقلين بالكتابات والزينة الفنية التى هى فى غاية الإتقان والظرف .

وأزهارها المرصعة بالفسيفساء من أجمل ما صنع الإنسان ، وتتألف كل زهرة من فئة من الحجارة الصقليه الملونة المتنوعة التى جمع ما بينها صانع ماهر فاكسبها الصورة التى أرادها .

وتلك الحجارة الملونة هى من اللازورد والزبرجد والعقيق والرخام السماقى والمرمر الأصفر الذهبى .

وقد زين أسفل الإطار المثمن والعرف القريبة منه بألواح رخامية ناصعه كبيرة ذات نقوش بارزة من الفسيفساء على شكل الأزهار وأوانى الأزهار ، ومثل تلك الألواح مما يشاهد أيضاً فى أسفل القباب التى تعلو مداخل تاج محل المزينة بالخطوط العربيه المكتوبة بالرخام الأسود .

*

ومن ذا الذى ينسى قصر الحمراء الذى أقيم على منحدر جبل شعير الذى يعد من أجمل أمكنة العالم والذى يشرف على مدينة غرناطه . وحقول بيغـه الواسعة الخصبة ، وإذا ما نظر المرء إلى الحمراء من غرناطه رآها أبراجا مربعة ذات ألوان قرمزية يناطح أعلاها السحاب ، ويحيط بأسفلها النبات الأخضر

الكشيف ، وإذا ما مر المرء تحت الأشجار التى تحف بها سمع تغريد الطيور التى عليها وخرير الماء الذى يجرى فى السواقى والقنوات القريبة منها ، ثم دخل ذلك القصر الشهير رأى ما تغنى به الشعراء ولا سيما صاحب المشرقيـــات « فيكتور هيجو » .

« .. أيتها الحمراء .. أيتها الحمراء .. أيها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام ، أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفه بنقوش كالزهور والأغصان المائلة إلى الانهدام ! حينما تنعكس أشعة القمر الفضيه على جدرك من خلال قناطرك العربيه يسمع لك فى الليل صوت يسحر الألباب »

وقد ذاع صيت قاعة الأسود ، وغرفة الأختين . وحجرة أبناء سراج ، وردهه العدل .

وفى قاعة الأسود ترى الأروقة التى تزينهـــا الأقواس المنوعه المزخرفه بالنقوش المزهرة والزخارف المتدليه والتخاريم التى كانت ذهبيه ملونه وتقع عين الرائى على غابه من الأعمدة الهيف التى وضع بعضها مفرداً وبعضها مزدوجا وبعضها مجتمعاً على شكل بديع والتى تبصر من خلالها التماع مياه فسقيه الأسود المتدفقه .

*

ومن أجمل ما يذكر هنا صورة الاحتفال الذى أقامه الخليفه المقتدر فى قصره ، لاستقبال رسل الامبراطور قسطنطين ، فقد مشى فى موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف وفارس وراجل . وسبعة آلاف خصى منهم البيض والسود ، وسبعمائة حاجب ونحو مائة أسد ؛ وكان ما علق من الستور فى قصر الخليفه ٣٨ ألف ستر ، منها اثنا عشر ألفاً وخمسين من الستور المذهبه ، وبلغ ما حاوه من البسط اثنين وعشرين ألف قطعة .

ولما نظروا إلى دار الحاجب ودار الوزير حسبوهما مجلس الخليفه فقيل لهم إن هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب ، وكانت دهشتهم على أشدها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الذهب والفضه وزنها خمسمائة ألف درهم ، وعلى كل غصن عصافير وطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة تتحرك كما يحرك الريح ورق الشجر . فتصفر الطيور وتهدر ، ثم أخرجوا إلى بستان فيه نخل ، قد لبست جميعها ساجا منقوشاً وهى مثقلة بغرائب التمر .

وكان الأمين عده حراقات خاصه فى دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب ، وقد أنفق على عمل كل واحدة منها ثلاثه ملايين درهم ، وقد امتد مرسى بغداد أميالا وحوى مئات السفن ومن بينها السفن الحربية ومراكب اللهو والسفن الصينيه والأطواف ، وهى قرب جلدية تملأ بالهواء ويشد بعضها إلى بعض كهيئة السطح .

ويبدو الفن الإسلامى فى أروع صوره فى المسجد الأموى فى دمشق ، وقبه الصخرة فى بيت المقدس ، والجامع العظيم فى سامرا الذى بلغت نفقاته سبعمائه ألف دينار .

وكان قصر عبد الرحمن الناصر فى قرطبه يضم بين جدرانه أربعمائة غرفة ومقصورة جىء برخامها من نوميديا وقرطجنه ، اما الأعمدة والأحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد استجلب بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاء هديه من امبراطورها .

وكانت شوارع قرطبة مناره بالقناديل فى حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عمومى إلى ما بعد سبعمائة سنه ، وكان أمراء ليون أو نافارا أو برشلونه إذا احتاجوا جراحا أو مهندساً ولوا وجوههم صوب قرطبه .

وقيل إن الطريقة التى شيدبها المهندسون قصر قرطبه عجيبه ، وأن الأعمدة التى تستند عليها والتى أحضرت إلى قرطبه من جميع أنحاء العالم قد وضعت بطريقة هندسية عجيبة ، حتى أن كل من وقف فى صحن الجامع فى أى اتجاه أمكنه أن يرى المحراب .

ووجد فى دار الخليفه المقتدر شجرة وسط حوض ماء لها ثمـانية عشر غصناً من الذهب والفضة ، تقوم على كل جانب من هذا الحوض تماثيل خمسة عشر فارساً يلبسون الحرير ، ويتقلدون رماحا تتحرك على الاستمرار وكأنهم فى وطيس معركة حربية .

*

أما « سر من رأى » فقد بناها المعتصم عام ۲۲۱ هـ أى بعد تشييد بغداد بنحو ثلاثة أرباع القرن . وقالوا إنه بناها بعد أن أكثر من اتخاذ الجند الترك فى جيشه وألف منهم فرقا خاصة طغى نفوذها على سائر فرق الجيش من الفرس والعرب . وضاقت بغداد بهم ، فكان أن عزم على الخروج بجنده من عاصمة الرشيد متخذاً لدولته عاصمة جديدة .

ووقع اختياره على موضع فى مدينة سامراء الحـالية على الضفة اليسرى لنهر دجلة ، وعلى مسافة مائة وثلاثين كيلو متراً شمالى بغداد . . وقد فضلت لموقعها الحصين حيث المياه تحيط بها من جميع أطرافها فتؤلف خطا دفاعيا للمدينة الجديدة .

وقد اتجه المعتصم فى تشييدها إلى الإبداع فى البناء ، واستخدم سائر الفنون الصناعيه والزخرفه ، فاستقدم أعظم الصناع وأصحاب المهن من جميع أنحاء الامبراطورية لينافس بها بغداد .

وأنشأ من القصور والبيوت والمساجد والبساتين ما يجل عن الوصف حل

طول امتداد تسعة عشر كيلو مترا .

وقد أنفق المتوكل على تعمير سامراء وبناء القصر نحو اثنى عشر مليونا من الدينارات ، وكتب ياقوت ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنيه العظيمه ما بناه المتوكل ، فهى فى نظره أعظم بلاد الله .

قال القزوينى : إنه لم يكن فى الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكا منها ، ومن قصور سامر : قصر العروس ، والمختار ، والبرج ، والغريب ، والميدان ، والصبيح ، وبستان ، والقلائد .

كما شيد المسجد الجامع الكبير ، وأعظم النفقة عليه ، وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها ، ولا تزال آثار مئذنته الملوية باقية .

ويتألف إيوان القبلة فى المسجد من خمسة وعشرين رواقا ، ويبلغ عدد أعمدة المسجد أربعمائه وثمانية وثمانين عمودا .

وأنشأ المتوكل حديقة كبرى للحيوانات المتوحشة كانت تتوسطها البركة الجعفرية التى وصفها البحترى فى قصيدته . وإلى جوار البركة حلبتين كبيرتين للسباق والفروسية ، كما شيد جنوبى العاصمة قصر بلكوار الذى امتاز بعظمة مساحته وكثرة الظواهر الفنية فيه .

*

وعلى ذكر بركة الجعفرية نذكر بركة خماروية التى وصفها المقريزى وهى عبارة عن فسقية مملوءة بالزئبق .. خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا وقد جعل أركان البركة سككا من الفضة الخالصه ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضه ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى تنتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة ، وتشد زنانير الحرير التى فى حلقة الفضة بسكك الفضة ، ولا يزال هذا الفراش يترنح بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة يرى لها فى الليالى المقمرة منظر بهيج إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق .

وقد أخذ الأوربيون عن العرب فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد كثيراً من العناصر المعمارية والزخاوف الفنيه . وقد وجد فى كتدرائية بوى التى هى من أهم البنايات النصرانيه بابا مستوراً بالكتابات العربيه . كما قامت حصون أربونه وفق الذوق العربى ، ويبدو أثر الذوق العربى واضحا فى الكنائس الفرنسيه .

وقد أدخل الصليبيون الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن العمارة العربى من الشبابيك وشرف المآذن والأفاريز ، أدخلوا إلى فرنسا الأبراج والأطناف والجواسق .

وبنى الملك ريتشارد قلب الأسد قصره المشهور فى مقاطعة نورماندى فى فرنسا على الطراز العربى .

*

ولم يكن هذا وحده الذى نقله الأوربيون ، فقد حمل الأوربيون الأرقام العربية معهم حيث حلت محل الأرقام الأوربيه المعقدة ، كما أفادوا من علوم الحساب والهندسة والجبر والفلك والجغرافيا . وفى اللغات الأوربية كلمات كثيرة ذات أصل عربى . . وظل الفرسان الأوربيون طويلا يلبسون دروع الزرد ، وقمصان القطن ، وأخذوا لعبة الكرة والصولجان والمبارزة .

والمرأة عندنا صفحات من الأمجاد لا تنسى ..

هذه « خولة » بنت الأزور التى قامت بعد أن أسر أخوها ضرار فى موقعة أجنادين فتلثمت فى زى فارس ومضت تحارب مع خالد بن الوليد الذى سار لإنقاذه .. قال خالد : إنه بينما هو فى الطريق مر به فارس معتقل رمحه لا يرى منه إلا الحدق . وهو يقذف بنفسه لايلوى على ما وراءه ، فلما نظر إليه قال ليت شعرى من هذا الفارس ، وأيم الله إنه لفارس .

ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك جند الروم فحمل عليهم حتى دمر كيانهم وحطم مواكبهم . فلم يكن غير جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدم وقد قتل رجالا ثم عرض نفسه للموت ثانيه ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وظنه الناس خالداً ، وقال الناس: من هذا الفارس الذى خرج كالشهاب على فرسه . وكلما تقدم منه أحد أنهل رمحه فى صدره .

وهنا ناشده خالد أن يكشف اسمه فرفع لثامه وقال : أنا خولة بنت الأزور

*

و « سكينه » بنت الحسين التى كانت دارها مجمع الشعراء من كل صوب وحدب ، وقد اجتمع لها جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب فنقدت لكل شعرة وأخذت عليه مأخذه ، ثم أثابت كلا بألف دينار فخرجوا بخمسة آلاف دينار .

و « عزة الجمحية » من سراة بنى جمح التى يجتمع إليها الشعراء والرواه فى دارها فتسمع لهم وتوازن بينهم جميعا .

*

ولما وفدت « عائشه » بنت طلحه على هشام بن عبد الملك قال لها ما أوفدك قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق ، قال : إنى سأعرفه حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بنى أميه فقال ، فقال : إن عائشة عندى فاسمروا عندى الليلة فحضروا ، فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت فيه ، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته .

فقال لها هشام : أما الأول : فلا أنكره وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتى عائشة .

*

و « ولادة » بنت المستكفى بالله التى كان قصرها مجمع الكتاب والشعراء والقضاة والعلماء والوزراء ، وهى القائلة :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

وقد أحبت ابن زيدون .

وهناك « مهجة » القرطبية ، و « مريم » بنت يعقوب الأنصارى .

*

وهناك الزاهدات من النساء ، المنقطعات إلى العبادة ، الممتنعات عن طيبات الحياه ، القانتات الباكيات ، ومنهن : رابعة العدوية ، وعبده (بفتح العين) البصرية ، ونخرية بنت عثمان ، ومعاذة بنت عبد الله .

وكانت رابعة تصلى الليل كله ، فاذا طلع الفجر هجعت فى صلاتها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر .

*

وهناك « سلمى » بنت حفص زوج المثنى بن حارثة التى تزوجت سعد بن أبى وقاص من بعده ووقفت مقيمة إلى جانبه ترى ما يرى ، فلما رأت الفرس حول يشدون أسد ويقتلون منهم صاحت : « .. وامثيناه .. ولا مثنى للخيل بعد اليوم »

ومنا الحاجب المنصور الذى قصده الجوهري القادم من مدينة عدن بجواهر كثيرة يقول له : إن صرة الجواهر قد اختطفتها منه عند الشاطىء حدأة .. فبعث المنصور يسأل فى محيط التجار عمن ظهرت عليه علامات الثراء فجأة .. وسئل الرجل عن الجهة التى أخذ الطائر طريقه نحوها ، فقال الرجل : إنه فر مشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى القصر ، فجىء بمشيخه أهل الرملة فامرهم بالبحث عن الرجل ، فقالوا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بيديه ، وقد ابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده ، فامر المنصور باحضاره ، فاستدناه وقال له : شىء ضاع وسقط إليك ماذا فعلت به ؟ فقال : هو ذا يامولاى .. وضرب بيده إلى صرة فى سراويله فأخرجها بعينها ، فدهش التاجر .

ومنا المعتصم الذى بلغه أن امرأة هاشمية من المسلمات وقعت فى يد الروم وباعوها فى سوق الرقيق ، فلما خافت أن يتسراها رومى صرخت « وامعتصماه » فلما بلغه الخبر قال لبيك لبيك .. النفير النفير .. وقام من سريره ولم يجلس .

وسار إلى أرض الروم فى جيش كبير ، وحاصر عموريه حصاراً شديداً خمسا وخمسين يوما .. فلما فضها سأل عن المرأة التى استغاثت به وقال لها نعم .. لبيك !

ومنا الرشيد الذى دارت بينه وبين شارلمان سفارات . وقد اهدى إليه الرشيد الساعة الدقاقة التى دخلت أول أمرة أوربا ، كما أهداه أثواب حريرية وتحف من الذهب وقردة وفيل ومفاتيح قبر المسيح دلالة على سماحة الإسلام

ومنا عبد الرحمن الناصر الذى فتح سموره .. وبينما هو سائر بين أخاديدها طرق أذنه نحيب طفل يبكى ، فلما اتجه ناحية الصوت إذا به وليد ما يزال فى لفائفه مطروح بين الأعشاب . فالتقطه واحتضنه وعاد به على طرف ردائه وفوق جواده .

وإذا بامرأة تقتحم الجمع ، صارخه نادبة تسأل عن ملك العرب .. فلما صرخت فيه: أعد إلى ولدى الذى اختطفه منى جندك ، إذا به يرفع ردائه عن الطفل ، فلما شاهدته استفاضت دموعها .

*

ومنا « الرشيد » الذى أرسل له « نقفور » رسالة غير كريمة ، فرد عليه : « قد قرأت كتابك والجواب ما ترى دون ما تسمع والسلام » .. وقاد الرشيد جيوشه ودخل أرض الروم وكتب له النصر . وسقطت البلاد فى يده واحدة بعد أخرى وولى جندها الأدبار أمام جحافل المسلمين ، حتى بلغوا أبواب القسطنطينية .

وجاء نقفور يسأل الرشيد مهادنة وصلحا ، وغفر الرشيد له غدره ، وصافحه وقبل منه الجزية ٣٠٠ ألف دينار ذهبا .

*

وعمر الذى حرم على نفسه اللحم طوال سنى الرمادة ، وكان يحمل على ظهره جرابين من الدقيق وكبة السمن ، ويذهب مع خادمه يوزع على الناس حتى ينتهى ما يحمله ، ثم يعود ويحمل غيرها ، وكان يتعشى عنـــده كل ليلة أربعون ألفا من الرجال والنساء والصبيان ، وقد حلف ألا يذوق سمنا ولا لحما حتى يخصب الناس ، وبقى كل ليلة يأكل الخبز بالزيت حتى اسود لونه ؛ وقال : بئس الوالى أنا إذا أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها .

منا خالد وسعد والمثنى الذين دكوا دولة فارس وهزوا عرش الأكاسرة.
ومن حولهم جنود مجهولون كانوا يرمون أنفسهم على العدو فيتساقطون صرعى

كانت صيحة خالد « وامحمداه » وصيحة الظاهر بيبرس « واسلاماه »
وهذا عقبة بن نافع الذى دفع حوافر فرسه فى مياه البحر الأبيض المتوسط
وهو يقول : والله لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر بلاداً لخضته فى سبيلك .

ومنا أبو ذر الذى قال إن الفىء مال المسلمين لا مال الله ، وعلى الأغنياء
أن يردوا فضول أموالهم إلى الفقراء .

ومنا قتيبه بن مسلم الذى وصل إلى الصين وقال إن الذى أول خيله فى بلاد
الزيتون وآخرها فى بلادكم لايستعصى عليه شىء .

ومنا عمر بن عبد العزيز الذى قال لواليه : ضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله
رأيك ، فان الله إنما بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا .
ومنا أبطال أجنادين واليرموك ودمشق والقادسية والمدائن .
ومنا عبد الله المبارك ، وسفيان بن عيينه ، وسفيان الثورى ، وداود
الطائى ، والفضيل بن عياض .

ومن عندنا شع نور الثقافة فى جامعة قرطبة التى سبقت الأزهر فى القاهرة
والنظامية فى بغداد .

ومنا الإدريسى ، والمسعودى ، والاصطخرى ، والقزوينى ، وياقوت
الحموى ، وأبو الفداء .

منا ابن قتيبه الذى قال : من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم .

منا المطهر المقدسى الذى يقول : ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لمتجرد له بكليته متوفر عليه . معان له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية ، مقترنا به التأييد والتسديد ، قد شمر ذيله وأسهر ليله حليف النصب ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرجا ، ويتلقاه متطرقا . لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط عشواء مع الظلام .

منا الذين فكروا فى كشف العالم الجديد ، وآية ذلك قصة الفتية المغررين ركبوا مركبا واتجهوا نحو الجنوب .

منا الذين عرفوا الرماية والجوكان « البولو » والصولجان ولعب السيف والترس وسباق الخيل والصيد والرماية والصيد ولعب الكرة والشطرنج .

ومنا التجار الذين بلغوا بين القرن السابع والتاسع الصين شرقا برا وبحرا وانتهوا إلى جزيرة زنجبار وأقاصى شواطىء أفريقيا جنوبا وتوغلوا فى روسيا شمالا ، ولم تصدهم فى أسفارهم غربا إلا أمواج بحر الظلمات « الاتلانتيكى » .

ومنا أعاظم الملاحين ، وهم الذين استخدموا البوصلة فى الملاحة . وأجدادنا أول من أحلوا الكاغد محل الرق ، وصنعوا الورق من شرائق الحرير .

واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأتقنوا فن تسقية الفولاذ واخترعوا البارود .. وعرفوا تركيب النار اليونانية ، فأصبحت أداة مهمة من أدوات هجومهم . واستخرجوا قوة البارود الدافعة واستعملوه بعد ذلك فى رمى القذائف ، واستعملوا الآلات القاصفة والأسلحة النارية .

وكانت مساجدنا بيوت عبادة ومعاهد دراسة ومجالس حكم ونوادى شورى، ومنازل غرباء ومآوى فقراء.

وعرف البحارة العرب «اليابان» وجزيرة مدغشقر التى كانوا يعتبرونها المكان الذى يفرخ فيه طير الرخ الخرافى.

وكان المسعودى هو أول من وصف الطواحين الهوائية فى سجستان التى لا ماء فيها، كما وصف الإدريسى أنابيب المياه التى يستعملها المغاربة والمضخات التى تزودها بالماء فى توليدو.

ومنا الزركلى الذى قال أن الظهر فى بغداد يسبق الظهر فى توليدو بثلاث ساعات و ٢٦ دقيقة، والذى تمكن من قياس طول البحر الأبيض المتوسط والمراكشى أبو الحسن الذى استطاع أن يحدد ٤٤ مكانا فى العالم.

ومنا الذين أقاموا فى مدينة بالرمو فى إيطاليا ثلاثمائة مسجد.

ومنا الشريف الإدريسى الذى صنع لملك نورمانديا كرة سماوية وخريطة للعالم فى شكل قرص من الفضة، وضمت هذه الخريطة صور الأقاليم الجغرافية ببلدانها وخلجانها وأنهارها وجبالها.

منا: نور الدين، صلاح الدين، خالد، طارق، قتيبه، ابن القاسم، أبو حنيفة، الشافعى، البخارى، ابن حنبل، الغزالى، ابن رشد، ابن سينا، الفارابى، البيرونى، الخليل، الجاحظ، أبو حيان، أبو تمام، البحترى، المعرى

ومن مراكزنا العلمية: بيت الحكمة، المدرسة النظامية، جامعه قرطبة، الأزهر.

نحن الذين كنا دائما قلة فى العدد ومع ذلك كنا ننتصر. انتصرنا فى: بدر، اليرموك، أجنادين، نهاوند، المدائن، حطين، عين جالوت.
نحن الذين طبعنا المجتمع البشرى على الأخلاق والإيثار؛ [illegible] يحب المرء

لأخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثره عليها ولو كان به خصاصه . والقوى فينا ضعيف حتى نأخذ الحق منه .

نحن الذين علمنا شرعه الحرب الرأفه ، وشرعة السلم العدل وجعلنا الحضارة روحا ومادة .. وكل أرض ينادى فيها (الله أكبر) هى أرضنا ، والعربية سياج ؛ والقرآن رباط ، والكعبة قبلة .

منا التى قطعت نطاقها لتحمل الطعام والماء « ذات النطاقين » ومنا التى قدمت خمسة من أولادها للاستشهاد « الخنساء » .

نحن الذين قال نبينا « أيها الناس .. إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى . ولا لأحمر على أبيض . ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت . اللهم فاشهد » .

نحن الذين حمل إلى حاكم من حكامنا نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب ما عدا الغلال والمحصولات . فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن يعدوه بالوزن لا بالعدد فيقولوا أنه يبلغ سته أو سبعة قناطير من الذهب .

نحن الذين لم نكن نفرق بين الأبيض والأسود ولا بين العربى والأعجمى

نحن الذين قال عنا « دولامر » إننا أنجزنا فى ثلاثة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الإغريق فى زمن أطول من ذلك بكثير .

نحن الذين قال أحدنا « الفرج بن فضالة » وقد أقبل المنصور يوما وهو جالس عند باب الذهب . وقد قام الناس له ولم يقم فضالة . عندما سأله المنصور لماذا لم يقم له قال : خفت أن يسألنى الله تعالى لم فعلت . ويسألك عنه لم رضيت . وقد كرهه رسول الله .

منا أبو بكر الخليفة الأول الذى لم تغير الخلافة منه شيئا . داره وحياته ولم يكن له سلطان مطلق ولا طبقة معينة ولا أرستقراطية .

منا أبو بكر الذى قال : إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار . وعملا بالنهار لا يقبله بالليل . وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . فانما تقلب موازين من تقلب موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفـــا .

نحن

— ١ —

كتب تاريخنا صفحات مشرقة ما أظن أن تاريخ الأمم الأخرى يستطيع أن يواجهها بصفحات مثلها فى البطولة وإنكار الذات والوفاء بالعهد . ولقد كانت أمتنا العربية الإسلامية يوما تمد يداها من المشرق إلى المغرب ولكنها لم تكن يوماً استعماراً أو دون إرادة الشعوب . ولم تفرض نفسها فرضا . أو تعيش بفضل الدسائس والمؤامرات كما يعيش الاستعمار اليوم مكروها منبوذا يحاول أن يحتفظ بسلطانه على الأقطار بأساليب الغدر وحدها بعد أن أصبح لا يجد له نصيرا . والميكافيلية الغربية التى عاش عليها الاستعمار منذ مائة وخمسين عاما لم يعرفها الشرق حين حكم ولم يصطنعها العرب ولا المسلمين .

لقد كانوا يدخلون الأقطار ليحرروها من عسف دول أخرى من الغرب

أيضا كانت يحتل بلادهم كالرومان مثلا . كانوا يدخلون هذه البلاد يحملون كلمة السلام ، تاركين لأصحاب البلاد حكم أنفسهم، محطمين للخلافات والانقسامات دافعين الأمة كلها إلى العمل فى جهة واحدة ، تاركين العقائد حرة غير مقيدة ، دافعين النفوس من النظر إلى الفرديات والصغائر إلى مجالات أخرى تتميز بالعمل الضخم الكبير فى سبيل إنسانى خالص . . .

ولم تكن البطولة فى تاريخنا مظهراً أو عملا مسرحيا يراد به الشهرة أو التظاهر بالقوة . وإنما كان عملا قويا حاسما جماعيا ، أساسه الإيمان بالله ، والرغبة عن الجزاء ، ولطالما قام أبطال بأعمال خارقة غيرت وجه التاريخ وحققت انتصارات رائعة ومع ذلك فان أسماء هؤلاء الأبطال ظلت مجهولة .

ولعل هذا هو أبرز مظاهر تاريخنا ، أنه يمثل صوراً من العمل الموحد الجماعى الضخم ، السريع لأمة مندفعة بقوة إلى أهداف واضحة، لا تؤمن بالمظاهر التافهة ولا تحرص على أن تقف أمام الأضواء ، ولكنها تتطلع إلى تنا. هذا العمل الكبير الذى تهدف إليه على أروع صوره وأكمل وضع وحتى تكتب له الحياة إلى أبعد مدى .

ولم يقف هذا الاتجاه عند الفتح وحده . بل امتد إلى ميدان العلم أيضا فقد عرفنا بالإيمان العلمى الخالص ، الذى دفعنا فى مجالات الكشف حيث لم يقف عملنا عند حفظ الحضارة اليونانية والرومانية . بل كافحنا فى سبيل إضافة أعمال جديدة إليها كانت بعيدة المدى فى تطور العلم .

٢

عندما خرجنا إلى أطراف الأرض .. بعثنا فى كل مكان روحا جديدة . كنا مثلا أعلى فى المعاملة . أحببنا كل من عرفنا . لأننا لم ندخل غزاة أو فاتحين أو طامعين . ولكننا كنا روحا جديدا يمنح النور والضياء .. أما فى وطننا الكبير فقد رفضنا كل عدوان . وقاومنا كل دخيل ، لم نستسلم أبداً .. أذبنا الأمم والمذاهب فى كياننا .

وكان دورنا فى الحضارة إيجابيا قويا . أخذنا الثقافه والعلوم فنقلناها وأضفنا إليها ، وأنشأنا ثقافات جديدة ، وفنونا من العلم والحكمة والفلسفة .

وعندما هوجمنا من الفرنجة دافعنا بعزم وقوة وسحقنا العدو . فلما وقع ملوكهم فى قبضتنا عفونا عنهم وعاملناهم بسماحة رائعة هزت أوربا وجعلتها تذكر رجولتنا وسماحتنا .

استبسلنا فى حطين وفى عين جالوت وفى دمياط . وأسرنا لويس فى المنصورة وعفونا عنه . وأسرنا قلب الأسد فى فلسطين وعاملنا بسماحتنا .

كنا أقوياء فى الدفاع والعفو على السواء ..

علمنا الدنيا الوفاء والبسالة معا ..

وقد عرفنا بالمناعة فى كل منطقة من مناطق شرقنا . ظهرت مناعتنا فى مصر أمام غزوات الهكسوس والليبيين والآشوريين والفرس بقيادة قمبيز وقاومنا هذه الغزوات مقاومة شديدة كما قاومنا تركيا .

وقاومنا الصليبيين فى سبع حملات صليبية استمرت أكثر من مائتى عام . لم تستطع فى خلال قرنين أن تقهر روحنا أو تخضعها . بل على العكس من ذلك خضعوا هم لروحنا و نقلوا من مذاهبنا وتقاليدنا .

وعلمنا الدنيا المدنية وسبقنا الغرب إليها إذ بينما كانت شعوب الفرنجة السكسون والجرمان تعيش فى الأكواخ ويعتلى ملوكهم وأشرافهم قمم الصخور فى القلاع المظلمة ، كنا فى الأندلس نشيد القصور القوراء ونرد الحمامات ونفتح أبواب جامعاتنا فى قرطبة للعلماء والمثقفين .

وفى أوربا ، بعد جلائنا من الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا استمر نفوذ حضارتنا وثقافتنا عصورا طويلة يطبع حضارة هذه الأمم بطابعه الواضح

ونحن ما زلنا فى برقه ونجد وبحر العرب والفرات ولبنان والأطلس ومصر أمة ذات مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها وعارضتها القوية . ما متنا وإن غشينا النعاس لحظه ثم أفقنا لنخطو خطوات واسعة ونسترد مكاننا ..

وليس بيننا و بين البعث إلا أن نؤمن بأنفسنا ووجودنا : وأن تكون لنا جبهة متراصة ذات صوت مسموع .

وعلى شواطئنا تحطمت كل موجة . تحطمت موجة الصليبيين بعد معارك ودماء وقاومنا الغزو التترى بقوة . هذا الغزو الذى يزحف من قلب آسيا حتى وصل بغداد . ثم اتجه نحو الشام وزحف إلى فلسطين فى عمليات تخريب ضخمة . فلما وصل رسل هولاكو إلى مصر يحملون رسالته إلى مصر بالتسليم شنق المظفر قطز الرسل وعلق رءوسهم على باب زويله واندفع بقواتنا يرد المغيرين عن أسوار غزه فى موقعة عين جالوت (سبتمبر ١٢٦٠) ولأول مره يهزم التتار ، واستعدنا الدين والمدنية والثقافة .

٣

لقد كنا رمزاً على العظمة والقوة سواء فى صفحات أمجادنا او صفحات هزائمنا . فعندما كنا نفتح البلدان ونذيع النور والحضارة فى العالم كله كنا غاية فى التسامح والحفاظ على الكرامة والرغبة فى السلام والإخاء .

وفى مواقف هزائمنا عندما أخرجنا الفرنجه من الأندلس كنا رمزا خالصا على الاستشهاد والمقاومة الخالصه الجريئة التى لا تقبل الضيم ولا تستسلم للتعذيب ولكنها تظل إلى اللحظة الأخيرة غاية فى القوة والإيمان .

ويصور يوسف كوندى المؤرخ الإسبانى هذه الصورة بقوله :

خرج ملايين العرب من اسبانيا حاملين أموالهم وفنونهم . ثروات الدولة . فماذا أنشأ الإسبان مكانهم . لا نستطيع أن نجيب بشىء إلا أن حزنا خالدا يغمر هذه الأرض التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . إن صرخة حقيقة تدوى فى أعماق هذه الآثار ومن صميم هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد للعربى المغلوب . .

لقد زوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سقطت لمدى قصير أشعه من ضوء الحضارة العربيه فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته . ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة مجلس التحقيق ، وسادت بعد ذلك فى اسبانيا ظلمة حالكة فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور وقضى على فنون أشبيلية وطليطله والمريه وجفت صناعاتها . .

وهكذا كان العرب عظماء فى الهزيمة كما كانوا عظماء فى النصر . كان الإباء والقدرة على مواجهة الشدائد أبلغ صورهم .

٤

صهرت المحن المسلمون والعرب فما من أزمة من الأزمات الضخمة التي كانت تلم بوطنهم الأكبر إلا واجهوها بشيء كبير من العزيمة والإيمان والثبات وبرصيد ضخم من المقاومة المستمرة التي يبذل فيها أغلى ما يملك وهو الروح والدم . ويرجع هذا البذل إلى أن الروح العربية والاسلامية العليا هي الإيمان بالفداء والبذل والحرص على الموت في سبيل غاية كبرى : ولقد كان هذا الحرص سببا مباشرا للانتصارات التي حققناها في جميع المعارك مع خصومنا بالرغم من أننا كنا في أغلب هذه المواقع أقل عدداً ولكن الإيمان بالفداء والاندفاع إلى العمل ونحن موقنون بأننا نموت في سبيل شرف عقيدة أو فكرة صادقة كان دائما يؤدى إلى النصر وليس أروع من صوره المقاومة الضخمة التي قام بها العرب والمسلمون لمحاولة استيلاء الغرب على العالم الاسلامي والتي استمرت قرنين كاملين دفعنا خلالها بمزيد من القوات وقدمنا فيها الشهداء وكان مركز المقاومة فيها قرطبة فدمشق فالقاهرة .

٢

عندما دخل الورد اللنبي بيت المقدس ١٩١٧ بعد أن حرره العرب من الأتراك قال كلمته المشهورة « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وبذلك كشف الغرب عن أوراقه وربط بين عمله فى احتلال الشرق العربى الاسلامى وبين الحملات الصليبية التى حاولت ذلك من قبل عام ١٠٦٩ أى منذ ٨٥٠ عاما كاملة هذه المحاولة التى استمرت قرنين كاملين من الزمان وانقطعت ٥٥٠ عاما ومع ذلك فان الرجل الغربى جاء ليبعث الماضى وليصور لنا موقف انجلترا وفرنسا من احتلالها للعرب بأنه ليس إلا اتصالا للمعارك الصليبية وأنه نهاية لها . . وأن روح التعصب الدينى التى ادعت أوربا أنها تخلصت منها منذ فصل الدين من الدولة ما تزال باقية وفى أشد صور قوتها وبذلك رسمت أوربا صورة التعصب فى أقسى مظاهرها فى عبارة أخرى للورد اللنبى وهى قوله « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » .

ولقد كان الغرب دائما فى طوال تاريخه رمز على التعصب يضمر الكراهية للشرق والعرب والاسلام ويصدر عن هذا الحقد فى كل تصرفاته ولا يستطيع أن يخفيه . فهو إن تناول آثار العرب وأدبهم القديم جعل التعصب رائده وأن عامل هذه الأقطار نظر إليها على هذه الصورة . . بينما هو فى دعواه الكاذبة المضللة التى يدعيها باسم حضارته ومدنيته يقول كاذبا أنه يستطيع أن يجرد نفسه من آثار الماضى ومن العوامل المختلفة عندما ينظر إلى قضية علمية أو مسألة فكرية

وبالرغم من عظمة التراث العربى والاسلامى وأثره الذى لا يختلف فيه أحد من أنه كان نواة الحضارة الأوربية الحديثة وأنه كان بعيد الأثر فى كل فنون الثقافة والعرفان التعصب يدفع الغرب دائما إلى الغض من قدر عظمة هذا التراث

تعد صفحات مقاومتنا للطغيان البربرى الغربى من أنصع صفحات الجهاد. بعد أن سجل التاريخ أن محاكم التفتيش كانت رمزاً على تعصب أوربا الذى وصل إلى أقسى صوره حين صبت عذابها علينا بقسوة بالغه وأجبرت الكثيرين منا على اعتناق دين آخر أو الهرب فراراً .

وليس هناك أقسى من صور الاضطهاد الذى فرضه الغرب علينا . وليس هناك ما هو أشد خطرا من حرق تراثنا فى ساحات المدن .

ولعله مما يلطخ حضارة الغرب المادية بالعار أن محاكم التفتيش كانت فى أول أمرها تقاوم العلم والفلسفة . وأنها حكمت فى ثمانية عشر عاما على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصا بان يحرقوا وهم أحياء كما حكم على ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا . وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفه .

أما أغلبنا فقد فر هاربا من أرضه ووطنه يقطع القفار مضحيا بكل ما يملك فى سبيل الحفاظ على عقيدته وحتى لا نضطر بالقوة إلى الردة . فقد كان الغرب قاسيا فى اضطهاده الدامى الذى حاول به أن يجتث جذورنا من أرض الأندلس فلا يبقى على شىء منها . كما يحاول أن يفعل اليوم فى فلسطين.

أما الذين رفضوا الهرب فقد واجهوا محاكم التفتيش فى قسوتها وعقوباتها الرديئه بجلد وصبر وإيمان . ولم يجعلوا من العوامل المبررة لقبول الرده سبيلا إلى خرق عقيدتهم أو الرضى بالتقية .

وقد أدهش قضاة محاكم التحقيق هذه الصلابة وهذا الإصرار من المتقدمين للنار بالرغم من المغريات التي قدمت لهم ليرتدوا عن دينهم :

ويقول المؤرخ لورنتي أن عدد الذين قدموا للمحاكمة والنار أكثر من ٣١ ألف نفس .

أي صفحة سوداء للغرب في تعصبه وحين يبلغ هذا التعصب الحاقد ذروته من هذه الصفحة التي هي في نفس الوقت صورة في أعظم صور القوة والإيمان والاستشهاد في سبيل عقيدتنا .

٧

أين هذه الصورة القاتمة من تسامحنا .. هذا التسامح الذى يبدو فى اروع صوره فى تكريم العلماء ورعايتنا للذين من غيرنا . ولن نتكلم نحن بل سندع الغربيون أنفسهم يصورون هذه الحقيقة .

يقول مستر « درابر » ان المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا على معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام . ورقوهم إلى المناصب فى الدوله حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة « حنا مسينه »

وكانت إداره المدارس فى عهود أخرى مفوضة إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى من هؤلاء العلماء والحكماء بختشوع وجبريل ويوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق ومتى بن يونس وثابت بن قره ويوسف يعقوب الكندى

وفى الوقت الذى هزمنا فيه الفرنجه فى الأندلس ، حين كانوا يدكون آخر معاقلها كنا فى تركيا ندخل القسطنطينيه وندمجها فى وطننا العربى الاسلامى الكبير فأى مقارنة يمكن أن تعقد بين العملين الخطيرين .

لقد عامل محمد الفاتح غير المسلمين بالعدل وسمح لهم بكنائسهم وطقوسهم وعقد معهم المعاهدات التى أقر فيها نشاطهم ودينهم ومنحهم الحرية الخالصة .. ترك لهم محمد الفاتح كنائسهم . وقوانين مللهم المختلفة وتقاليدهم فيما يتعلق بمسائل الحكم الملى وما يختص بمسائلهم الشخصيه كالزواج والطلاق والمسائل الدينية فى حدود نظمهم وتقاليدهم القومية ورعى فى القضاء العدالة التامة بين المسلمين والمسيحيين .

أما فى الأندلس فقد كان الأمر من أقسى صور التعصب والظلم والاضطهاد الأعمى العنيف الموغل فى العنف والذى أريد به سحق المسلمين سحقا كاملا والقضاء على العرب قضاء تاما .

٨

إن الغرب كان ولا يزال يخاف القوة الروحية الكامنة فى أمتنا الموحده المتجاوبه . يخاف هذه القوة ويخشاها ويعمل منذ مائة عام على سحقها والقضاء عليها وتمزيقها وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها . ولكنها بالرغم من ذلك كله تجمعت .

ولعل محاولته — أى الغرب — فى مقاومة هذه القوة الروحية الضاربة هو الذى دفعنا إلى التوحيد والتجمع والمقاومة كتلة واحدة .

ولقد كذبت كل الدلائل نظريات الغرب التى تقول بتفاضل الاجناس وسيادة العناصر البيضاء مما يدعيه بعض كتاب الغرب من أن بعض العناصر خلق للسيادة وبعضها خلق للخضوع . أو دعوات التفاوت بين الآريين والساميين والسود والبيض والشرقيين والغربيين

فقد كان أساس هذه الدعوة الإلقاء فى روعنا أننا من جنس غير جنس المستعمر الأبيض . وقد أثبتت الأحداث كذب هذه الادعاءات جميعها فلسنا نحن أقل من غيرنا مطلقا .

وقد حملنا أمانة الحضارة ثمانية قرون كامله من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر . وكان للتراث الذى خلفه أقطابنا أثره فى توجيه الفكر العالمى إلى نتائج علمية وكان من نتائجه البارعة كشف القارة الأمريكية .

ولا شك أن نقش صورة ابن رشد على جدران الكنائس كان فى نظر معاصريه دليل أكيد على اعتباره من أعلام الإنسانية .

وقد كان تراثنا هو المنار الذى اهتدى به كولمبس فى فتح أمريكا .

واق فى نظر البعض المقارنة بين خالد و نابليون . والقياس هنا مع الفارق لعل أبرز هذه الفوارق أن خالد كان يعمل خالصا لغاية عليا لا يبتغى معها مظهراً فقد أرسل إليه عمر بعزله عن قيادة الجيش فتقبل راضيا وعمل طائعا كجندى إلى جوار قائده الجديد وكان فى خلال فتحه للممالك لا يبغى علوا فى الأرض . أين هذا من مطامع نابليون وأحقاده على ملوك أوربا . ورغبته فى ان يكون سيد أوربا ثم سيد الدنيا . ومن قبله الاسكندر ومن بعده هتلر وقد سجل بورديان كاتب تاريخ نابليون الذى عاصره انه كان يحتقر الناس ويعتقد أن دولاب العالم لا يحركه إلا الخوف والمصلحة وذلك عكس مايعتقده خالد أو غيره من قادة العرب .

كان قادة الاسلام يواجهون الأحداث فى صبر وإيمان ويستقبلون الاستشهاد وفى قوة وجلد . ليس فى أعماق ضمائرهم إلا كلمة الله . يريدون لها العلو .

أما قادة الغرب فقد كانوا يستقبلون الموت فى خوف ورهبة .

وكان صفوة المسلمين يعلمون أن الموت حق . ولذلك فهم يتقنون صناعة الموت ويحسنون الموت المشرف .

هذا إلى لون من السمو عن الصغائر يظهر واضحا فى معاملة صلاح الدين لملوك أوربا حين عفا عنهم .

لم يستطع الغربيون فى خلال هذه الفترة الطويلة أن يفهمونا بل على العكس حصلوا على شعور إجماعى بالكراهية والاحتقار والمقت لهم والثورة عليهم كراهية إجماعية لهم . ولكل من حاول أن يعينهم داخل وطننا الكبير .

وقد زاد هذه الكراهية قوة أن الغرب استغل عملية التبشير والتغريب وإثارة التعصب والعدوان وسحق قوى المقاومة وتمزيق الوحدة واستغلال كل وسيلة منكرة من التآمر والدس .

وبذلك ظهر تماما أن روح هذه الحضارة قائم على هذه المعانى وبذلك تختلف حضارة الغرب على حضارتنا التى تقوم على أساس وهدف ومثل أعلى فقد جعلنا آمالنا أرفع وأبعد مدى من الغايات المادية فنحن لم نقترف مظلمة ولم نسىء معاملة المغلوبين أو نكرههم على أمر لا يرضونه . كنا ولا نزال مثلا للتسامح حتى أن التاريخ أكد بأن العالم لم يعرف من الفاتحين من هم أرحم ولا أكرم ولا أعدل منا .

وكانت رحمتنا وتسامحنا من أسباب اتساع فتوحنا واعتناق كثير من الأمم لعقيدتنا ونظمنا ولغتنا التى رسخت وقاومت جميع الغارات .

وكما فشل الغرب فى هذا الاتجاه فشل أيضا فى حرصه بمختلف الوسائل على تحطيم ثقافتنا ولغتنا وتراثنا . وزعزعة عقائدنا وذلك رغبة منه فى تحطيم هذه القوة الروحية الضخمة التى التئمت لعرب والمسلمين فى الشرق وكانت عاملا ضخما منحهم القوة على مقاومة كل استعمار ومواجهة كل ظلم فانتهى بهم

ذلك إلى الانتصار وإلى سحق كل من يحاول أن يحطم أوطانهم أو عقائدهم .

وقد فشلت كل هذه المحاولات فشلا ذريعا .

إن قيمنا الروحية هي تراث نملكه جميعا ، نملكه نحن في الشرق كوحدة لا فرق فيها بين دين ودين . ومن هذه القيم الروحية نستمد معنى الحيـــاة وتضحيتها في سبيل الفكرة وبذل الدم في سبيل الحرية .

ولقد ظل الغرب يخشى هذا الخطر .. ويخشى أن يواجه هذا الضياء بعد أن أشرق وامتد فهو يريد أن يكذب أضواء النور ويصر على أننا ما زلنـا في الظلام .

لقد حطم هذا الضياء عملية التغريب الذى حاولها الغرب ، منذ طويل . وحطم كل خطة لما أريد بها سحق هذه القوة .

سناد روحى للحضارة

لا شك أن الحضارة التى يعيشها العالم اليوم هى ميراث إنسانى خالص لا يجوز أن يطلق عليه أنه غربى أو غير غربى . ذلك أن النتائج الضخمة فى الكشف والاختراع التى وصلت إليها الحضارة اليوم إنما هى نتيجة للكفاح العقلى الضخم الذى توارثته الأجيال فى الشرق والغرب منذ آلاف السنين . هذا العمل الذى اسمه الحضارة بدأ أول ما بدأ فى العالم على ضفاف النيل ثم تحول وتنقل إلى فارس وروما وأثينا وبين النهرين وبابل وآشور وقرطجنة ثم حمل العرب أمانته فترة أن حلك الظلام فى قلب أوربا فأضافوا إلى الميراث فنا وعلما وأسلموه لأوربا قويا حيا .

وليس يستطيع منصف أن ينكر الخطوات الضخمه التى حققتها أوربا فى ميدان الكشف وحقائق العلم ما فتح أمام الانسانية عصرا جديدا من الصناعة والانتاج والماكينة ، كان هذا العصر معجزة المعجزات فى تقصير الامادو إلغاء المسافات وإخراج الألوف المؤلفة من الأدوات من فوهات الماكينات الضخمة والرقى بوسائل الحياة وأساليبها وإشاعة روح الترف والنعمة فى ثنايا الحياة

ولكن هذا الاتجاه الصناعى الضخم المرتبط بفنون الكشف والابتكار الذى وصل إلى ذروته لم يقصد إلى سعادة الانسانية بقدر ما اتجه إلى تدميرها نتيجة للآلة الحربية الضخمة القاتلة بمختلف فنونهـــا من مواد ناسفة وقنابل محرقة .

ومن هنا أصبح قياد الحضارة فى يد هذه الآلة المتحكمة التى تحمل الموت والدمار ولم يعد للمعانى السامية من خلق ورحمة وبر مكانا بعد أن أصبحت القوة هى الحكم الأخير فى كل الأمور .

فاذا أضيف إلى هذا الكشوف الأخيرة من الذره والقنبلة الهيدروجينيه والصواريخ الموجهة أمكن تصور مدى الهوة التى تنحدر إليها الحضارة . ومدى المادية الضخمة التى تتجه إليها. هذه المادية التى لا تعرف المعانى الانسانية ولا تحتكم إليها ولا ترى فى حل الأمور وسيلة غير وسيلة القوة والآلة . ومن هنا كان هذا التنافس القوى فى ميدان التسلح وصناعة الطائرات والدبابات وقاذفات القنابل وحاملات الطائرات والجنود والأساطيل والقذائف .

نحن لا نعيب القوة فى ذاتها ولا الكشف والاختراع ولا أثر الآلة الضخم من تطور الحياة الانسانية ولكننا نعيب الانحراف بهذا العلم كله إلى ميدان واحد هو سحق شعب أكثر قوة لشعب آخر لا لسبب إلا لأن الشعب الأقل قوة لم يقبل أن يكون عبدا وتابعا للشعب الاقوى .

فالحضارة العصرية قد انحرفت برسالة الحضارة الأساسية التى ظلت أمانة فى عنق حملة أمانتها منذ آلاف السنين وهى رسالة الانسانية وخدمة البشرية .

فالحضارة العصرية لها عيوب متعددة تناقض أصول الأديان ولكن عيبها الضخم هو فقدانها المعنى الانسانى بايغالها فى المادية المتعصبة التى تقوم على أساس التفريق بين الأجناس والألوان من ناحيه والسيطرة بالقوة على بلاد تيقظ فيها الوعى وأحست بحاجتها إلى الحرية والسيادة . فالأثرة التى تتميز بها الحضارة الاستعمارية تدفعهـا إلى التسلط على مقـدرات الشعوب والتفرد بخاماتها وثرواتها من دون أهلها مع تعصب بغيض يمتد أحيانا إلى مجال الفكر والثقافة بقصد تحطيم مقومات شخصية الأمم التى تـــندفع إلى التحرر من ربقة الاستعمار .

ولعل أبرز جانب من جوانب الحضارة يراه أهل الشرق منها هو هـذا الجانب العدوانى الذى يتمثل فى ضرب المدن بالقنابل المحرقة واستغلال صنائع لهم فى كل مكان بالمال . وخـداع جموع الشعوب بالوعود الكاذبة وإغراء الأمم والدول بالاستدانة مكتسبين بذلك حق التدخل الاقتصادى وإغراق البلاد برؤوس أموالهم مما يؤدى إلى أن يستأثر الدائنون بكل شىء .

وجملة القول أن الحضارة العصريه اعتمدت على جانب واحد هو المادية الميكانيكية البحتة وأغفلت أخص خصائص الانسانية البارزة المعالم فى أدوار الحضارة المختلفة .

وبعد حربين عالميتين كبيرتين لم تعرف الانسانية مثيلا لهما إلا فى هـذا القرن تحولت النفسيه البشرية تحولا خطيرا . فقد أعطتها صورة الموت البشع والتدمير الذى أعفى على المدن والآثار والفنون ــ أعطتها روح الأنانية والاسراف فى اللذة ، والاندفاع نحو المتاع الفردى وحـده واحتقـار كل المثاليات والمبادىء .

فقد ارتبطت الحضارة بالاستعمار . وأصبح العلم والعقل على ما بهما من رفعة وجلال عبدان رقيقان لهذا الاتجاه . وأصبح معنى هذا أن الحضارة تقف فى وجه الحرية والكرامة والانسانية عن أن تسمو وتقوى وتتجه إلى غاياتها وأن من أهدافها أن يظل الانسان فى بعض مناطق الأرض عبدا ذليلا ضعيفا فاذا اتجه إلى الحرية ضرب بالقنابل من الجو وسحقت قواته وأعيد مرة أخرى إلى حظيرة العبيد وأن الحضارة التى من شأنها أن تدفع الانسانية إلى الأمام فى سبيل التحرر والقوة والسيادة ترى من أهدافها التفرقة بين الأبيض والأسود والشرقى والغربى وأن تجند قوى الفكر والعلم فيها للمحافظة على هذا التقسيم البغيض المفتعل . وقتل روح الحرية والكرامة فى هذه الشعوب

وبهذه العوامل المادية المغرقة فى المـــادية انحط مستوى الحضارة وبدأ السوس ينخر فيها بقوة . وأوشكت كشوف العلم الحديث نفسه تكون وبالا عليها وقضاءا على صروحها الضخمة .

وقد نادى برتراند رسل وغيره من مفكرى الغرب بأن الحضارة توشك على الانهيار والتردى فى هوة عميقة مظلمة إذا لم تجد لها سنادا من روحيـة الشرق وإيمانه بالمعانى الانسانيه العليا .

وليس شك أن الحضارة التى انحرفت عن رسالتها وأوغلت فى المادية إيغالا خطيرا لم يعد لها سبيل لانقاذ كيانها إلا بأن تأخذ من الشرق روحيته وايمانه بالخلق والكرامه .

ما احوجنا إلى روح كروح تولستوى وغاندى وعمر بن الخطاب هـذه الروح التى سترد إلى الحضارة قوامها من الايمان بالانسانية كاملة لا أسود فيها ولا ابيض . والتى ستجعلها توقن بأن أشرف مشارف الحضـارة هو دفع الانسانية إلى الأمام فى سبيل الحرية والقوة . وأن التسامح والعيش فى سلام

هو غاية الغايات . وأن العدالة والرحمة هى جزء لا يتجزأ من الحضارات .

وأن العالم كله يستطيع أن يعيش فى وفاق وأن تتضافر الجوانب المختلفه على تضامن اجتماعى واقتصادى من شأنه أن يقضى على المجازر والحروب والصراع

فاذا أخذت الحضارة العصرية سنادها الروحى من الشرق فقد قضت على ماديتها الغالية المسرفة ومزجت بينها وبين العاطفة والاحساس . وسمت عن المعانى الخاطئة التى يجعلها تستعلى بنعرة الجنس وعصبية القومية .

حقا ما أحوج الحضارة إلى سناد روحى من الشرق . ولكن هل القوامون على الحضارة اليوم مستعدون لتقبل هذا الاتجاه ..

وهل الحضارة نفسها بعد انحرافها هذا تستطيع أن توائم بين ماديتها وبين الروحية .. أم أن على الشرق نفسه أن يأخذ مكانه الحق فى الحياة الانسانية بأن يأخذ مادية الغرب ويمزجها بروحانيته الأصلية فيحمل بذلك لواء الحضارة مرة أخرى ويدفعها إلى الميدان الانسانى الخالص ..

إن فى الأعوام القادمة الاجابة الحقة على هذا السؤال ..

جنود مجهولون من وراء الصفوف !!

– ١ –

من حفر قناة السويس ؟

أشار السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه التاريخى الخاص بتأميم شركة قناة السويس يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ الى أن ١٢٠ ألفا من العمال المصريين ماتوا أثناء حفر القناة ولهؤلاء العمال الشهداء قصة دامية لم يتعرض لها الكتاب والمعلقون بعد ان سجل لهم المؤرخون الأجانب صفحة من صفحات المجد والفخار حتى أن المؤرخ « ارنولد ولسون » اعترف بفضل هؤلاء الضحايا وقال « أن ينبغى أن يقام لهم تمثال من المرمر الشفاف كتمثال الجندى

المجهول . وقد جحدت الانسانية فضلهم كما جحدت العناء الذى لاقوه »

والمعروف أن العمال المصريين الذين حفروا قناة السويس قد جمعوا قسرا وفق اسلوب السخرة المشئومة التى كانت تتبعها اذ ذاك حكومة سعيد . وقد بدأ العمل فى حفر القناة فى ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ إذ ضرب أول معول فى الأرض التى تجرى فيها القناة قريبا من مدينة بور سعيد . وكانت هذه المنطقة بالذات بعيدة عن الزاد والماء . وكانوا ينقلون المياه على ظهور الجمال . وقد مات كثيرون من الذين لم يستطيعوا الحصول على جرعة ماء .

وكانت اليد العاملة تجمع من القرى والبلاد قسرا وتساق بالقوة . وكانت الأسر تبكى أبناءها الذاهبين ، موقنة أنهم لن يعودوا . وكان الاختيار قائما على أساس تقديم الشباب القوى دون العجائز والمرضى والضعفاء فاذا كان هذا الاجراء قد استمر حوالى عشر سنوات ، واذا تصورنا أيضا أن عدد العمال الذين كانوا يقدمون شهريا قد بلغ ثلاثين ألفا . وان مثل هذا العدد يكون فى طريقه الى القناة ومثله فى طريق العودة الى بيته ، أمكننا ان نقدر ما أصاب الاسر والزراعة المصرية من الضرر والخسارة بسبب تغيب هذا العدد الضخم عن حقولهم فى بلد لا يكاد تعداده فى هذه الفترة يبلغ خمسة ملايين من الأنفس .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الشركة كانت قد تعهدت فى أول الأمر بتشغيل ماكينات ضخمة فى حفر القناة وقالت انها لن تكون فى حاجة الى أكثر من ٤ آلاف أو خمسة آلاف عامل . ولكنها وجدت بعد ذلك - نظرا للتسلط من جانبها وضعف الرقابة من جانب مصر - أن فى السخرة ما يغنيها عن استعمال الماكينات .

وأشار ملحق الفرمان الخاص بتشغيل الفلاحين الى أن الشركة تدفع للفلاحين أجرا عن عملهم يتراوح بين قرش ونصف وثلاثة قروش فى اليوم

الواحد . وبالرغم من ضالة هذا الأجر الذى لم يكن يتكافأ مطلقا مع العمل الذى يؤديه العمال فان العمال لم تصل اليهم هذه الاجور وضاعت بين المتعهدين والشركة .

هذا فضلا عن أن العمال كانوا يدفعون من جيوبهم أجر عودتهم الى بيوتهم وكانت تزيد عما يتناولوه من أجور .

وقد أضرب العمال مرات عديدة مطالبين بأجورهم ولم يكن لهذا الاضراب من نتائج سوى أن يضربوا مرة أخرى بالسياط . كما ضربوا فى حالة استقدامهم من بلادهم وفرارهم بالقوة وقد سجلت الوثائق أن الشركة طلبت من الحكومة تأديب هؤلاء المطالبين باجورهم .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى كان العمال الاجانب يحصلون على أجور ضخمة .وكانوا بمثابة رؤساء ومشرفين على العمال المصريين حتى أن بعض المؤرخين أشار الى أن القناة كانت ينبوع ثراء للعمال الاجانب وكان دى ليسبس شديد التحمس للسخرة وقد رفض أكثر من مرة وقف أعمالها .

كما سجلت الوثائق المحفوظة فى مقر شركة القنال السابقة فى باريس أن العمال المصريين كانوا يضربون بالسياط وان من مات منهم أثناء العمل كان يدفن تحت التراب الذى يخرجه معوله . وانهم لم يحفروا القناة فحسب بل حفروا أيضا ترعة القناة الحلوة وأقاموا المبانى والمساكن الخاصة بالمهندسين .

وقد اقتضت أعمال شق القناة حفر ونقل ٧٢ مليون متر مكعب من الأتربة والرمال . كما أن ملء البحيرات المرة قد استغرق خمسه شهور إذ بلغ مسطحها ٥٠٠ مليون متر مكعب .

وشهد المهندسون الذين أشرفوا على العمل ان الصلصال كان يحتوى على مادة فسفورية محرقة ومميته .

وكانت الشركة تغرى العمال المساكين بالتعرض للموت بمزاولةهذا العمل نظير منحهم شيئا من البصل والارز والعسل .

وقد انتشرت الكوليرا والحمى التيفوديه بين العمال الذين لم يتعـــودوا مناخ منطقة السويس وقد انتقلت منهم الى بلادهم ففتكت بالاهــــالى فتكا ذريعا .

وسجلت أقلام ذوى الضمائر الحرة ممن عاصروا حفر القناةأرقام الضحايا وبعضهم قال ان الذين ماتوا من الفلاحين المصريين بلـغ مائة ألف ومنهم من ذكر ضعف هذا الرقم .

أما أطباء الشركة فقد كانوا ينشرون بيانات مطمئنة عن صحة العمال .

وبعد فهذه قصة الضحايا والشهداء من العمال المصريين الذين ماتوا تحت رمال القناه والذينعملوا فيها سخرة دون أن يأخذوا أجرا . أليستأرواحهم اليوم فرحه فى مقرها الأعلى بتأميم شركة القناة وعودتها الينا ؟

اليس من حقنا اليوم أن نطالب باقامة تمثال من المرمر الشفاف لبطولتهم ليوضع بدلا من تمثال « ديلسبس » فى مدخل القناه .

— ٢ —

كالينكوس

هذا بطل لا يعرفه التاريخ ، ولا يسجل أسمه ... ولا يضيفه بين أسماء الأبطال . إنه جندى مجهول ، وقف من وراء الأحداث ، وكان بعيد الأثر فى ظفر البيزنطيين وهزيمتهم للعرب عندما حاصروا القسطنطينية ، ثم كان بعيد الأثر أيضاً فى إنتصار المصريين على الفرنجه الذين هاجموا دمياط .

هو مصرى قبطى . كان يعمل فى مصر فى صناعة الكيمياء ... مع المصريين العاملين فى هذه الصناعة التى كانت إذ ذاك وكان مقرها هليوبوليس .

ثم غادر مصر إلى القسطنطينيه فى عهد قسطنطين الرابع حيث خرج إلى القسطنطينية تحت ضغط ظروف خاصة ربما كانت عبقرية الرجل الذى لا يجد فى وطنه ما ترغبه وقد أتيح له أن يعمل هناك فى أعمال المقاومة التى كانت بيزنطه يقوم بها فى سبيل رد هجمات العرب على القسطنطينية .. وقد أتيح له

أن يصنع تلك القذائف التي اطلق عليها فيما بعد « النار اليونانية» والتي كانت عبارة عن كرات ملتهبة من الخشب الممزوج بالغاز والكبريت مضافا اليه ملح البارود وزيت التربنتين والشحم .. خرج كالينكوس من مصر ضيقا بالعيش فيها ، وظل يتنقل في ربوع الشام حتى وصل القسطنطينية ، وكان في خلال الفترة يشتغل كعامل عادي ، .. ثم جاءت الفرصة التي استطاع فيها أن يبرز وأن يظهر ، فقد كانت بيزنطه جميعها مشغوله بالدفاع عن سواحلها من هجمات العرب ، والصوافي والشواتي ، التي كانوا يرسلونها لمحاصرة سواحلها .

وهنا تفتقت عبقرية هذا العامـــل البسيط الذي دفعه حبه للبحث فأخذ يجرب هذا التركيب الكيمائي . ويقذف السفن العربية به ، والواقع أن كالينكوس قد نجح في التجربه الأولى نجاحا باهرا رفع قدره في نظر رجال الحرب ، فقد كانت هذه القذائف تنفجر حالما تصطدم بالهواء فتخلف عنها دخان كثيف ، وتبدو منها نار ذات ألسنه ثم يزداد اضطرامها عند ما تسقط على الماء .

وقد حدث على أثر القاء هـــذه القذائف على السفن العربية سنة ٤٨ هـ ٦٦٨ م . ان اضطرب لها العرب إضطرابا شديدا ، فهم قد امنوا جانب البحر بعد ان أوغلوا فيه ، فلما وافتهم هـــذه الظاهرة الجديدة انزعجوا لها أشد الانزعاج وأدي ذلك إلى فرار سفنهم بعد أن احترق عدد كبير منها ..

وقد أحدثت هذه النار ، مثل هذا الأثر في حصار العرب الثاني للقسطنطينية بل يمكن القول أن هذه القذائف هي التي صرفت نظر العرب عن احتلال أوربا عبر القسطنطينيه .

غير أن كالينكوس قد غمط حقه ، فلم يكن اختراعه هـــذا على خطره

وجلاله ، ذا أثر فى مكانته فى الدولة البيزنطيه التى كانت تعانى إذ ذاك الكثير من الاضطراب ..

وإن كان رجال الحرب قد تلقفوا الاختراع ، واقاموا عليه فصيلة خاصة، كانت تقوم بأعمال القذف ، وبقى أمر النار اليونانية سراً . ظل بعيد الأثر فى حماية القصور البيزنطية من هجمات العرب وحملاتهم وقتا طويلا . .

ثم انتقل سر هذه النار اليونانية إلى مصر ،إلى البلد التى أنجبت كالينكوس فأفادت منه طويلا ، إذ دفعت به هجمات الفرنجه للشواطىء المصرية وفتكت بهم فى معارك دمياط حتى وصفه المؤرخ الفرنسى دى جوانفيل فى تاريخ لويس بقوله : أنها تشق عباب الهواء كانها طائر طويل الذيل تنشر جناحيها ، ليصحبها دوى الرعد وتنطلق بسرعة البرق ، فتبدد أضوائها ظلمات الليل »

وكما فاجأت النار اليونانية العرب فى شواطى تركيا ، فانها فاجأت سفن الفرنجه فى دمياط .. كما اضرمت الابراج التى اعتصموا بها .

وهكذا قدم كالينكوس يدأ ان كانت قد افادت بيزنطه زمنا فانها انتقلت بعد ذلك إلى أيدى أبناء وطنه ، وكانت بعيدة الأثر فى هزيمة الفرنجه الذين كانوا قد احتلوا دمياط وزحفوا إلى المنصوره .

ولا شك أن كالينكوس قد قضى بقية عمره فى القسطنطينية بعد أن تيح له إخراج هذه القذائف إلى حيز الوجود ، وقد عاش اختراعه بعده أجيالا وقرونا حتى وصل الى العرب فى الأندلس حيث استعملوه فى مهاجمه الفرنجه سنة ٦٥٥ هـ أى بعد اختراعه بأكثر من ستة قرون . ومع هذا الأثر الضخم الذى ذكره التاريخ للنار اليونانية فان اسم (كالينكوس) اختفى فى بطون الكتب ، ولم يرد عنه الا اليسير .

بين جمال الافغانى وعبد الحميد

هذه مقابلة بين شخصيتين متضاربتين.. جمال فى مثاليته ودعوته إلى تحرير الشرق من الحاكم الظالم المستبد ومن الاستعمار والمستعمرين وعبد الحميد فى تسلطه وطغيانه وسحقه لكل مفكر حر وكل حريه. ويجمعهما أن كان كلاهما يدعو إلى الجامعة الاسلامية ولكن على طريقته الخاصة.

أما عبد الحميد فقد كان شخصية رهيبة طاغية يروى التاريخ أن شخصا ما لم يستطع الوقوف أمام مؤامراته. نشر الجاسوسية وسلط عيونه وأعوانه على كل طرف من أطراف الأمبراطورية وحكم الدولة العثمانية أربعين عاما من وراء الستار الحديدى لقصر يلدز الذى كان منطويا على شخصه وبلاطه وأعوانه..

وكان من أهداف السلطان عبد الحميد التى تتفق مع سياسه الاحاطه بكل شىء وقمع كل حركة فى سبيل النهضة أن يجتذب اليه كل شخصية لامعة من شأنها أن يتجمع من حولها الناس وكان ذلك فى سبيل توطيد نفوذه وسلطانه .

وقد كان جمال الدين الأفغانى فى ذلك الوقت قبلة الأنظار الاسلامية كلها بعد أن طوف بأغلبها وترك فيها أثاراً من العلم والفكر والدعوة إلى الحرية حمل لوائها الكثير من مريديه وأعوانه ، كل هذا دفع عبد الحميد إلى الحقد عليه فقد رآه يوشك أن ينتزع الزعامة منه وأن يقوض سلطانه فاراد أن يسجنه فى قفص من ذهب تحت سلطانه وقريبا منه فى استانبول .

ولست أدرى كيف فات هذا الرجل الذكى الحصيف هذا المعنى فقبل دعوته فلما وصل هناك استقبل أروع استقبال وأعد له قصر فخم وأجرى عليه السلطان راتبا ضخما حتى يحببه فى البقاء . وكان ذلك الاجراء فى ذات نفسه من أسباب الكيد لجمال ، فقد توقف عمله وكفاحه فى سبيل رسالته فى نفس الوقت الذى استفاد منه السلطان ودعم مركزه .

ولكن يبدو أن جمال الدين كان أقوى من أن يطوى أو يستغل . فقد كان صريحا جريئا مع السلطان لا يهابه ولا يخشاه .

إذ أنه ما ان استقر فى الآستانه حتى تجمعت حوله المتاعب وخلقت الخصومات والاحقاد وكان أكبر خصوم جمال الدجال أبو الهدى الصيادى الذى خشى ان يزاحمه جمال فى مكانه أو يطغى على سلطانه .

وقد بات الصيادى يدس لجمال بعد أن عرض السلطان عليه منصب شيخ الاسلام ومضى أبو الهدى يتهم جمال بالالحاد والزندقة وافساد العقائد ودس إلى السلطان الكثير من الأكاذيب عن جمال الدين مما جعل عبد الحميد يضيق به وينصرف عنه .

ومما دسه أبو الهادى الصيادى إلى السلطان أن جمال يجتمع بالخديو سراً وأنه أعد معه خطة لضم سوريا إلى مصر واقامة دولة عباسية ..

وتسمم الجو حول جمال وكثرت المؤامرات حتى ضاق بالاقامة فى استانبول، وقد زاد فى هذا مكان أبو الهادى عند السلطان تمكينا وكان قد وصل إلى استانبول وتسلل إلى قصر الخليفة وتقرب اليه حتى اقتعد من نفسه مكانه المرموق الذى جعله يتصرف فى اقدار الناس وأن يكتسح جميع أهل الحظوة عند السلطان وأن يتقدم عليهم . ومنذ اليوم الأول حريصا على أن يثير غضب عبد الحميد على كل شخصية لامعة ينتظر أن تنافسه فى مكانه ذاك . وقد فعل ذلك بعبد الله نديم وجمال الدين الأفغانى وغزه باشا العابد وكان يأتى السلطان من ناحية التصوف والدجل والأحلام وتفسيرها . وكان له فى ذلك أسلوب عجيب . فقد كان يثير ثورات مفتعلة فى أطراف الأمبراطورية ينبىء عنها الخليفة قبل أن تقع ثم تحدث بعد ذلك وتنطفى بفضل دعواته .

وقد اصطنع الدروشة وسيلة لمطامعه الكبيرة واستغلال قداسة الدين وتأثيره للوصول إلى أرفع مرتبة فى الدولة . وكان إلى ذلك زلق اللسان له قدرة بارعة على الاقناع .

وقصة وصوله إلى السلطان جاءت عن طريق أمراة . أمراة ناظر الضبطيه التى أصيبت بمرض أعجز الاطباء . وكان شيخ الطريقة الرفاعية قد هاجر من حلب إلى استانبول فوصف لها حجبا وتمائم من أوهامه ، فبرأت بعد أيام . وشاع ذكره فى دار السلطان فلما مرضت إحدى حظايا السلطان استدعى لها فصادف أن شفيت الجارية فكان هذا بداية إتصالة بعبد الحميد الذى نصبه رئيسا لمجلس المشايخ فى دار الخلافه .

ولم يلبث بذكائه أن سبق كبار الشخصيات ورجال الدولة . وقد عرف بالمكر والدهاء فكان يبتسم لخصومه وللكائدين له ولا يظهر الحقد . فاذا

جاء الوقت ضرب ضربته وقد استطاع أن يقصى السابقين واحداً واحداً حتى جاء جمال الدين فأفسد ما بينه وبين عبد الحميد وأقام عليه العيون والارصاد يحصون حركاته وكلماته .

وكان عبد الحميد قد رغب فى أن يستفيد من جمال فى دعوة المسلمين إلى الجامعة الاسلامية والاعتصام بعروة الخلافة وجمع شتات المسلمين فى حوزة دولة تحت لواء الخلافة العظمى وهو عين الهدف الذى يدعو اليه جمال والذى يرمى إلى دعم حرية الشعوب نفسها .

* * *

لقد كان جمال الدين كتلة من الحماسة والذكاء ، لا يهدأ ولا يكل ، كان أمله الأسمى تكوين رأى عام ذا أثر قوى على الحكومات والمسئولين . يتمتع الشعب بحقه فى الحكم وينتزع هذا الحق إنتزاعا من الحاكمين المستبدين .

وكان الأفغانى شجاعا إلى أبعد الحدود . لا يهاب أحداً ، ولا يرهب حاكما أو سلطان . وكان يرى فى السجن خلوه . والنفى سياحة والقتل شهادة .

وعمل فى سبيل غايته الكبرى على تقريب وجهات النظر بين الشيعة والسنة . وأنكر التعصب . ودعا إلى انكاره . وفتح باب الاجتهاد . ونفر

من التقليد فى المذهب ولم تؤثر عنه مؤلفات كثيرة ولا اسفار ضخمة . وكان جهاده باللسان قبل القلم . وكان بليغ الأثر فى مجالس الناس .

كان يؤمن بالدعوة إلى الجامعة الاسلامية على طريقة عبد الحميد الذى كان يستغل الفكره لتركيز سلطانه ، أما جمال فقد كان يرى فى الجامعة الاسلامية اتحاداً شاملا بين المسلمين ، ينير كل شيء ، ويعود بالمسلمين إلى الأصول الدستورية التى قوامها الشورى .

وكانت انجلترا ترى فى جمال الدين أخطر خصومها وتخشى أمره وتحاصر نشاطه فهو الرجل الأول الذى عرف علة الشرق ووضع يده على موضع الداء . وهو الفرقة والخلاف وإنقسام الكلمة وتشتت الآراء فحاول أن يجمع كلمة المسلمين فى الشرق كله إلى لواء موحد .

وعاش جمال حياته سائحا مغتربا مشردا لايكاديستقر فى مكان حتى يغادره. عاش فى الأفغان والاستانة ومصر وباريس ولندن . واخرج من مصر على صورة مزرية فى نفس اليوم الذى تولى توفيق فيه أمر الخديوية .

وكان فى سفره لا يحمل معه شيئا فاذا قيل له أين صناديق الكتب أشار إلى صدره اما صناديق الثياب فهى ليست سوى جبته التى لا يغيرها الاعندما تبلى. فاذا أعطى مالا رفضه وقال إن الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب .. فاذا سأل عن وطنه قال ليس للمسلمين اليوم وطن .

وقد ظل جمال محبوسا فى قفص السلطان عبد الحميد الذهبى حتى مات بالسرطان وقيل أنه دس له مبضعا مسموما فى أبان مرضه عجل بوفاته ..

مصابيح على الطريق

هل لارتفاع السن أثر فى تغيير الاراء ؟

أعجب للذين يقولون أن أرائهم فى شأن من الشئون ، هى نفس أرائهم منذ عشرين أو ثلاثين عاما . كانما هذه السنوات الطويلة ، وهذا الانتقال من سن إلى سن ومن زمن إلى زمن آخر . ومن وضع نفسى وإجتماعى وفكرى ، إلى وضع آخر من لم يكن له أثر . .

وانى اشك كثيرا . فى أن يظل الإنسان على رأى واحد فى الحب أو الموت أو السياسه طوال حياته . بل ان آراء الشباب فى ذاتها قلما تثبت عند إرتفاع السن وعند بلوغ الأربعين .

ولا شك أن الخبرة المنوعة ، والتجارب المتعددة ، والاحداث المختلفة التي تصادف المفكر أو الكاتب أو الفنان عندما يندمج فى المجتمع ويتصل

بالناس ويحب، ويكره ويذهب في مجالات الحياة والعمل وتتفتح أمامه أبواب الطموح والمجد أو تغلق دونه . وتذهب الأيام به في جولات ، في خضم الحياة ، يكسب فيها ويخسر وينجح فيها ويفشل ومن هذا كله يأخذ الكاتب وقود أفكاره ومادة فنه

وإذا هو بعد إرتفاع السن ونضوج الفكر ، يحاول أن يراجع أفكاره وأرائه وأهوائه خلال السنوات الأولى فلا بد أن يجد هناك فارقا ضخما فقد كانت الأراء خطيره براقه ، ثم جاءت الخبره فاكسبتها قوة وحياة .

ولذلك فقد عرف في حالات كثيرة أن الذين يتزوجون في أول الشباب يغيرون أرائهم في الزواج وفي شكل المرأة وفي كل ما يتعلق بها بعد سنوات فليس ما يرونه في شبابهم من أمر المرأة ، ومقاييس جمالها ،ولونها، وثقافتها.. يبقى كثيرا . ان النضج نفسه ومعاقرة الحياه وقراءه قصص الناس ، ومعرفة أخبارهم ، والأحداث المتوالية ، تكسب الرجل ذوقا وفهما ، يتحول به من وضع إلى وضع ومن ذوق إلى ذوق .

*

وكثير ما يحس الناس عند ما يرتفع بهم السن ، إنهم لو أتيح لهم أن يعودوا القهقرى إلى أوائل الشباب لاختاروا أعمالا أو أوضاعا غير تلك التى يعملون فيها . ولقد لوحظ أن كثيرا من الناس غيروا أعمالهم بعد أن قطعوا بها مراحل الشباب وتحولوا منها إلى غيرها ونجحوا في أعمالهم الجديدة . ووصلوا فيها إلى أبعد ذرى النجاح ..

ويأتى فى حساب التحول فى التفكير : الاحساس بارتفاع السن وأثره في فكرة الخلود . فالأحساس بقرب الموت يعطى المفكرين تحولا في التفكير فيه إنحناء على المجد . وإننا لنعرف الكثيرين من الادباء الذين أجادوا في

المراحل الأخيرة من حياتهم بفنون من الانتاج لم تتح لهم فى شبابهم وكانوا بها فى دعامه التحول عن الافكار القديمه .

ولن يستطيع مؤرخ أن ينكر أن امثال شو الذى مات وقد أربى على التسعين لم يتحول فى هذه الفترة الأخيرة من تاريخه فلقد عاش حتى سن الأربعين مجهولا لا يعترف به أحد ... وشوقى ، ألم يكتب فى الفترة الأخيره من عمره تلك القصائد الصوفية فى مدح الرسول والمسرحيات الخالدة التى أدخلت إلى الشعر العربى فناً جديداً لا شك فيه . ولو أن شوقى أو برنارد شو ماتا قبل هذا السن لما سجل لهما التاريخ هذا التحول فى المرحلة الأخيرة من حياتهما .

ان إرتفاع السن يعطى الكاتب الوضع النهائى لافكاره وآرائه ومذاهبه ، ولقد ظل طه حسين والعقاد وهيكل حتى الأربعين قبل أن يخط أحد منهم حرفاً واحداً فى الفن الجديد الذى تبلورت اليه أفاقه الأدبى وكتب له به الخلود .

فتراجم العقاد التى أطلق عليها اسم العبقريات وكتب طه عن هامش السيره والفتنة الكبرى وكتب هيكل عن محمد وأبو بكر وعمر كلها جاءت بعد إرتفاع السن ، وانت تستطيع أن تقرأ هؤلاء الكتاب قبل هذا الفن فلا تجد عندهم شيئا ... إلا فصولا منثورة .

ولكن أى سن هذا السن الذى يمكن أن يقال أنه بداية التحول : أنا افترض انه سن الأربعين . فهو القمة التى يتحول فيها الفكر ويتجه إلى معنى الخلود . وتبدو فى النفوس فورة الاحساس بالقمة العالية والمجد ...

ولعله ليس مما يتفق لكل الناس ، أن الحياة لا تعطى هنائها ونعمائها إلا بعد الأربعين . بعد أن يكون المكافح المجدود قد أجهده السعى وأشقاه

الكفاح خلال سنوات طويلة ، وقد بدأ الشيب يغطى عارضيه وأخذت الأمراض تخترمه وعلامات الشيخوخة تصاوله بقوة .

وفى خلال السنوات العشرة ربما تتحقق له الآمال التى كان يحلم بها فى مطلع الصبا ، ويتطلع اليها فى سن العشرين .. ويتمناها فى الثلاثين .. ولكنها تظل ضنينة حتى إذا جاءت لم يكن فى المستطاع أن يسوم سرح للهو وان يأخذ من الحياة ما كان يطمع فيها أيام الشباب .

ولكن القدر من ناحية أخرى يوازن الأمور ، ويعادل فى العطاء ، فهو يعطى فى الشيخوخة المال ليداوى به المرض . ويعطى الرخاء فى الوقت الذى يعجز فيه عن العمل ويكون قد أصبح فى حاجة إلى الراحة .

وليس شك أن للسن أثر فى تغيير الآراء فلكل دور له فلسفته وحكمه . وللسن حين يرتفع حنكة التجربة وهى غير غرور الشباب . الشاب القوى المندفع الطموح الذى يتجه إلى امله بقوة وعنف ويحتضن كل مجال مطمحا ومطمعا ، أما فى الشيخوخة فان الأمر يختلـــف . فتضعف الامال وتنطوى ثمه ، ويذهب الانسان مذهب الحرص والاتجاه نحو نفسه فتزداد عنده عاطفة الأنانية وحب ذاته . ويحرص على الا يوسع دائرة صداقاته ويكتفى بالقدامى من معارفه وبالذكريات يجترها وبالمنازل التى كان يرتادها وهو فتى .

نحو أدب القوة

لعل الأحداث التى تمر بالشرق اليوم تدفعنا بقوة نحو أدب القوة . فنى الوقت الذى يتنمر فيه الاستعمار ويأتمر يجب علينا أن ننفض عن أنفسنا رداء السلبيه والانطواء والترف . وان نندفع لنصقل أرواحنا ونعبىء مشاعرنا ونحس بأننا فى خطر يتطلب منا أن نواجه الحياة بايجابية وصلابة وأن نقاوم وندافع . ذلك اننا نعيش فى مرحلة من مراحل الضرورة التى تنفطم فيها النفس عن الشهوات والاهواء وتتجه إلى الخشونه والصرامة والتأهب لخوض معركة الحرية الطويلة المدى التى تحتاج إلى حشد نفسى ضخم يعين على المقاومة الطويلة مهما طال الطريق وإذ كان أدب القـــوة أدب ضروره فى فترات الكفاح المرير التى تمر بها الأوطان فى سبيل الحرية فهو بالنسبة الينا ليس إلا

طابعاً مميزاً لنا عرفنا وعرفنا به فقد كانت القوة سمة أدبنا العربي كله ذلك لأن طابع القوة يتفق كثيراً مع روحنا ومزاجنا ومكاننا فى العالم وموقعنا بين الشرق والغرب .

فنحن أمة لنا مظهرنا المرتبط بثقافتنا وماضينا العريق وتراثنا الخالد . وقد كانت حياتنا فى الماضى حياة انتصار وإمجاد طالما كنا أقوياء مؤمنين بأنفسنا آخذين أهبتنا لمواجهة الأحداث. ولقد كانت دعوة « الدين » انما هى دعوة القوة . فقد وصف « الحديد » بأن فيه بأس شديد ومنافع للناس . وطالبنا بأننا إذا لقينا فئة فعلينا أن نثبت : وان لانهن ولانحزن وأن نحافظ على أسلحتنا وامتعتنا حتى لا يميل العدو علينا ميلة واحدة .

ولقد كان أعلامنا لا يحبون الزاهد الضعيف المتخاذل . وكانت الدعوة « الصوفية » فى أول أمرها دعوة إلى الخشونة وفطم النفس من الشهوات ، وصقلها من الأهواء لتكون قوة ضخمة فى مواجهة الخصوم ومقاومة الاعداء

وقد عرف الشرق بهذه الروح . فهى طابع له وفى ذلك يقول غاندى . « ان قهر النفس مطلب أشد صعوبة من قهر العالم بالسيف والنار . وأنا أريد أن أصل إلى درجة الصفر حتى أصل إلى معرفة الله » .

وقد كانت القوة ولا تزال ناموساً أزلياً قائماً . وان يستطيع « الحق » أن يعيش الا فى حماية « القوة » حتى قيل ان « الحق للقوة » وليست تستطيع أمة أن تكون حية مرهوبة الجانب يحسب حسابها فى كل شىء ما لم تكن هذه الأمة قوية .

وليس شك أن « أدب القوة » يهيىء النفوس لمواجهة الشدائد . واحتمال أعباء الكفاح والجلاد . ويوجه القلوب والعقول وجهة السمو على الصغائر والارتفاع فوق الأمور الدنيا ، والتسامى إلى الأمجاد . فتبرز الشخصية القوية المستحصدة ، التى قد تحررت من الرخاوة والبلادة والاهواء .

ولطالما كان الأدب العربي على فترات طويلة رمزاً لهذه الروح العالية وحصاداً للنفس العربية القوية المندفعة بإيمانها الكبير وسلاحها القليل لتفتح ولتنشر كلمة الحق وتقيم العدل فى كل مكان تحل فيه .

وكان الشعر واضح الأثر فى أدب القوة . إذ كان حداء المحارب وغناء المجاهد :

✻ إذا غامرت فى شرف مروم	فلا تقنــــع بما دون النجوم
✻ وما فى سطوه الأرباب عيب	وما فى ذله العبــــدان نـار
✻ إذا لم تجزهم دار قوم مودة	أجاز القنا والخوف خير من الود
✻ كل حـــلم أتى بغير اقتدار	حجة لاجىء اليهـا اللئام
✻ يرى اللؤماء أن الجبن حزم	وتلك خديعـــة الطبـع اللئيم
✻ وما ينفع الأسد الحياء من الطوى	ولا تتقى حتى تكون ضواريا

وإن أدب القوة نفسه لا يبرز فى ميدان « الحرب » والقتال وحده . ولكنه يظهر فى كل معالم الطبيعة الإنسانية . ففى « الحب » يبدو أدب القوة ليعطى لتلك العاطفة صورة من السمو والروعة والتعالى والمثالية. وفى مختلف فروع الحياة تصبغ القوة العمل بروح الاصالة . وتعطى النفس الانسانية معنى الكرامة والاعتداد والبعد عن الذله والخضوع ..

وفى كل ميدان تعطى القوة طابعا واضحا رصينا : ميدان الإجتماع والتعليم والاقتصاد والمسرح والموسيقى والصحافة .

ولقد كان كتابنا الأقوياء فى خــــلال حياتهم أعلاما يرسمون الطريق ويفتحون أبواب حرية الفكر . فالمتنبي والزهاوى من ألمع شعراء القوة فى أدبنا العربى والكواكبى وجمال الدين وعبد الله نديم من أبرز كتاب أدب

القوة وابن تيميه من دعاة القوة فى ميدان الفقه وابن رشد من دعاة القوة فى الفلسفة والغزالى من دعاة القوة فى التصوف وعمر بن الخطاب من دعاة القوة فى الحكم وعمر مكرم ومحمد كريم وعرابى وجمال عبد الناصر من دعاة القوة فى الوطنية .

وخالد بن الوليد والمثنى وسعد بن أبى وقاص وصلاح الدين من دعاة القوة فى الجهاد . و « صناعة الموت » .

*

وإذا ذكر أدب القوة ، لعله يذكر نيتشه أو ميكافيلى وهما من دعاة القوة فى الأخلاق والسياسة فى الغرب . ولكنها القوة القائمة على الظلم والغدر وليست القوة التى يعرفها الشرق مصدر الروحيات والديانات فنيتشه « نبى » القوة فى الغرب يجعل القوه من حق السادة ويرى أن هناك طائفة من الناس عليهم أن يظلوا عبيدا بخلاف الشرق الذى يؤمن بحق السيادة لجميع الناس .

ويرى ميكافيلى أن الغدر هو الطريق الموصل للنصر فى ميدان السياسة .

أما نحن فى الشرق وفى أدب العرب نرى القوة فى صورة أخرى ..

نرى قوه السياسة فى الخلق . ونرى القناعة قوة لأنها تقاوم الأهواء والمغريات ونرى الرحمه قوة لأنها من قدرة الإنسان على البذل والعطاء . ونرى الكرم قوة والعفو قوة ونرى الزهادة والنسك قوة لأنها قدرة النفس على المقاومة وليست القوة عندنا هى القدرة على تحقيق كل شىء حتى المآثم وإنما تكون القوة فى دفع النفس عن الظلم والعدوان وهى قادرة عليهما .. والقوة عندنا فى كظم الغيظ والعفو عن الناس تماما ، كالقوة فى دفع الظلم وسحق الظالمين ومعنى هذا أن القسوة والعنف هما شىء غير القوة فمن مذهبنا فى القوة أننا لا نجهز على جريح ولا ننتقم من ضعيف . وبعد فان الاتجاه نحو الاتكالية والرخاوة الذى نراه بصورة واسعة فى الشرق اليوم أمر دخيل علينا وليس من طبعنا الأصيل الذى كان دائما مثلا الايجابية والسلامه والقوة والحيوية . وأن علينا اليوم أن نعود مرة أخرى إلى أدب القوة .

المدرسة الصوفية

ما أحوجنا اليوم ونحن نكافح فى سبيل بناء الوطن الاسلامى الكبير إلى الصوفية النقية . صوفية عمر وعلى والحسن البصرى والجنيد . ما أحوجنا إلى نفسيات قد بلغت غاية السمو والكرامة والعزة حتى نستطيع أن نواصل الكفاح بقوة وعزيمة ماضية . نفوس قد فطمت عن الشهوات وترفعت عن الصغائر وتسامت على النزوات لخفقات كيانهـــا الروحى والنفسى والعقلى قويا عاليا .

ولا تستطيع أى مدرسه فكرية أن تعطينا هذه القوه إلا مدرسة الصوفية وقد أثبتت المدارس الفكرية الأخرى التى تقوم على المجاملة والمرونه والليلاقة إنها لا تصلح أبدا لأمة فى فترة كفاحها فى سبيل الحرية وبناء وطن كبير

إن هذه المدارس تخلق رجل الصالون الأنيق المجامل الذى لا يستطيع أن يجهر بكلمة الحق . وهو على العادة رجل غلبت عليه المطامع الدنيوية . فهو يجامل ويتملق ويسمع ما يكره ويخفى آراءه الخاصة حتى لا يشتبك فى خصومة وبهذا يظل طوال حياته امعه ، ولعل هـذا هو لون الشخصيه التى فرضتها علينا فى الشرق الحضـارة الغربيـة وهو بعيد جـدا عن مقومات شخصيتنا الاسلامية الأصيلة ومع الأسف فاننا قد مضينا شوطا مع هـذه المدارس فوقذتنا الحياة وماتت فى نفوسنا روح الجرأة والشجاعة الأدبية .

وما أحرانا وقد بدأنا نتحرر من الاستعمار والاستبداد وننشىء الحياة فى الشرق كله . ونعد المجتمع الإسلامى الموحد المتماسك القوى أن نعود إلى مدرسة الصوفية .

هذه المدرسة التى قوامها قدرة النفس على قمع الشهوات ومقاومة المطامع والبذل فى سبيل الفكرة والاستماتة من أجل العقيدة الصادقة .

ولذلك عرف المتصوفة بالجرأة والإيمان . ولا شك أن الانتصارات التى بهرت ولا تزال تبهر المؤرخين والباحثين فى تاريخ الاسلام إنما هى ثمرة الصوفية الصادقة . ويتمثل هذا المعنى فى عديد من الوقائع . التى تعطى صورة الشجاعة الفائقة . شجاعة الاندفاع نحو فتح الحصون وسحق الأعداء والجرأة فى مواجهة الأخطار وإنكار الذات .

يتجلى ذلك فى موقف « صاحب النقب » .. هـذا الجنـدى البطل الذى لا يعرف له التاريخ إسما . والذى يتميز عن جيش كامل بصوفيته فلما وقف العرب وطال بهم الوقوف عند أحد الحصون الجبارة على حـدود الروم ، وأمل الناس الحصار . وكان موقع الجيش بعيدا عن مكان الحصن . أخـذ مسلمه أمير الجيش ينتدب من الجنود من يعرفه أو يثق به لثقب الجدار الذى

يحمى الحصن . وكان كلما تقدم رجل أردته سهام المدافعين . ومات واحد وثان وثالث ورابع . دون أن يصل واحد منهم إلى الحصن .

ومضى مسلمه يندب الجنود . ومضى الأعداء يصرعون كل من يتقدم وعندما يصل الموقف إلى هذا الحرج . إذا بشاب لا تبدو عليه مظاهر البطولة نحيل ضامر . يتقدم على فرسه مندفعا إلى الحصن كالشهاب .. فى قوة ومضاء لا يبالى بالسهام وقد انهالت عليه من كل مكان فما أصابت منه . ومضى الرجل حتى أدرك الحصن وتمكن من إحداث النقب فاندفع العرب إلى قلب المدينة

فلما فرغ مسلمه من امر الفتح نادى فى الجيش : اين صاحب النقب فلم يتقدم أحد وتكرر النداء دون مجيب . والح مسلمه على صاحب النقب ان يتقدم وهدد وتوعد بعد ان اغرى ومنح .

وفجأة تقدم رجل ضامر . إلى خيمة الأمير . وقال له : صاحب النقب يشترط ليدلكم على نفسه الا تسألوه عن اسمه او قبيلته او شيء من امره . فاذا اعطيتموه شرطه اظهركم على نفسه .

قال الأمير نعم قال الرجل انا صاحب النقب . وادار ظهره واندس فى مجموعة الجيش .

ولصاحب النقب امثال كثيرة فى تاريخ الاسلام . من هذه الأمثلة على الصرامة النفسية القوية فى الإيمان بالنفس موقف طارق بن زياد حين حرق مراكبه بعد ان عبر إلى الأندلس ومن هذه الصور قصة عيسى الغواص هذا الصوفى الذى كان يستطيع الغوص فى البحر من جانب فلا يظهر إلا فى الجانب الآخر . كان المسلمون محاصرون فى عكا ايام الحرب مع الصليبيين . وكان الاتصال بينهم وبين المسلمين خارج الحصار قد انقطع بعد ان ضغط العدو

عليهم ضغطا شديدا . ومن ثم أصبح من العسير إيصال المؤن والذخائر إلى الجماعة المحصورة . وكان لا بد من عبور مسافات طويلة فى الماء لتحقيق هذا الغرض .

وتطوع عيسى . كان يشد حول وسطه حزاما يحمل فيه كل ما يراد نقله من أموال أو رسائل أو غيرها من الأشياء الهامة . وقد ظل عيسى يقوم بهذه المهمة الشاقة مرات . كانت سفاراته بين الفريقين المحصورين غاية فى الأهمية والخطر . ولم يكن هناك من يستطيع أن يؤدى مثل هذا الواجب فكانت عيون الجميع ترقبه . وقلوبهم تخفق باسمه .

وذات ليلة أرسل صلاح الدين ثلاثة أكياس فيها ثلاثة آلاف جنيه من الذهب نفقة للمحاربين . وقد حملها عيسى ووضعها فى منطقته . وحمل الرسائل وغيرها وعام قاصدا الطرف الآخر من البحر . وكان من عادته أن يطلق حمامة زاجلة عندما يدخل عكا . ووصلت الحمامة مؤذنة بان عيسى فى الطريق . ولكن دون جدوى لأن عيسى لم يصل ..

وبعد أيام قذف البحر غريقا هو عيسى الغواص . وقد وجدت أكياس الذهب الثلاثة مشدودة على بطنه والرسائل معها وكانما أراد هذا الشاب الصوفى المجاهد أن يؤدى الأمانة ميتا بعد أن اداها حيا .

وفى الجانب الآخر ترى أهل الصوفية النقية أجرأ الناس فى قول كلمة الحق . كانوا يجبهون بها الأمراء والزعماء والحكام . لا يبالون الجزاء . فقد هانت الحياة عليهم واستخفوا بزخرفها وانمحت من قلوبهم مطامعها فلم يعد يخيفهم الحرمان منها .

وكانوا يرددون مع الصوفى القديم . « إن قتلى شهادة وسجنى خلوة وتغريبى سياحة » .

والتاريخ يذكر شعيبا والفضيل بن عياض وعطاء وأبى حازم وابن السماك وعمارة بن حمزة والأوزاعى بأنهم كانوا زهاداً وصوفيـة . وقفوا موقف الجرأة فى تذكير الخلفاء بعيوبهم وأخطائهم . ورفضوا ما قـدم لهم من أعطيات أو هدايا .

فاذا أضفنا إلى هذا ذلك الكفاح الضخم فى سبيل العلم الذى قام بها أمثال الغزالى والشافعى والبخارى وابن تيمية لم نعجب . فان الصوفية الخالصة هى التى كانت تجعـل هؤلاء أعلاء وغيرهم يستعـذبون الكفاح والجهـاد وتحمل المشاق فى سبيل الفكرة الخالصة المجردة من المطامع الدنيوية أو الجزاء العاجل

وقصة البخارى من أروع قصص طلب العلم والجهاد فى سبيله فقد أمضى أكثر من عشرين عاما وهو مسافر يتنقل فى الأمصار الاسلامية يستمع إلى العلمـاء وينقل منهم ويتحدث إليهم ويحقق ما لديهم من حـديث رسول الله وكان السفر إذ ذاك غاية فى المشقة .

وقد أتاح له هذا أن يجمع أكثر من ستين ألف حـديث . واستمع إلى أكثر من ألف شيخ من الذين يحفظون الحديث يجد مع الواحد منهم حديثا أو حديثين ثم يسجل كل هذا وقد عاد مقارن بينـه ومحصه ودرس قوة الرواة والتسلسل ليصل هذا كله الى ستة آلاف حديث .

ومن مواقف التصوف الباهرة التى تجل عن الوصف ما احتمله ابن حنبل وابن تيميه فى سبيل الرأى .

ولسنا نستطيع أن ننسى هنا أولئك الجنود المجهولين الذين لم يذكر التاريخ اسمهم والذين قاموا بدور ضخم فى سبيل تحقيق انتصارات الاسلام وفتوحه، كان هؤلاء جميعا صوفية فى ظل المعنى الذى رسمناه للتصوف الخـالص فلولا هذا الإيمان العميق ما استعذبوا الجهاد والنضال . والبذل والتضحية . واتخلفوا

فى بلادهم يعيشون حياة طيبة رخية. ولكنها الصوفية الصادقة هى التى دفعتهم إلى استعذاب الجهاد والحرص على الموت والاستشهاد فى سبيل المبدأ والغاية وبهذه الروح الصوفية اندفعوا من أنحاء الجزيره إلى أطرافها شرقا وغربا يغزون الروم وفارس فى عنفوانهما فداانتا لهم . وخلص الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض إلى حدود القسطنطينية . ثم اقتحامهم أفريقيا إلى مصر والمغرب والأندلس ..

ثم فتحوا الهند وما وراء النهر وجنوب فرنسا وإيطاليا .

هذه الانتصارات التى سجلها المسلمون فى اليرموك ودمشق وأجنادين كلها انتصارات صوفية .

وهؤلاء الذين دفعوا التتار والصليبيين فى بيت المقدس والمنصورة ودمياط وعين جالوت كانوا صوفية .

أولئك الذين وصلوا إلى أسوار فينا وإلى نهر اللوار كانوا صوفية فى حدود فهمى للصوفية الحقة .

*

ونحن اليوم فى حاجة إلى موجة من هذه الصوفية . الصوفية المقتحمة لا المنطوية . رياضة النفس بالعمل لا بالسلبية . عمادها مقاومة مطامع الدنيا ونحن فى قلب المعركة وليس الجنوح إلى الاعتكاف من وسائلها ولا غاياتها فليس هناك رهبانية فى الاسلام ولا انقطاع عن الدنيا ..

والتصوف كما أفهمه يهدف إلى القصد من متاع الدنيا رجاء متاع الآخرة ويهدف إلى نفض اليد من البريق وشغل القلب عن المتاع فى سبيل المعانى العليا

ولست أشك فى أن نظام الفروسيه الذى اقتبسه الفرنجة من الشرق أيام الحروب الصليبيه هو نظام صوفى . يقوم على الشجاعة والمروءة والفتوة

والكرم والشهامة . وهو يهدف فى جملته إلى أن يحرر النفس فى سبيل الأمة فتعيش للجماعة وتعيش للفكرة وتعيش للمثل الأعلى وبعد فاننا نمر فى تاريخ الشرق الاسلامى بمرحلة الضرورة . وهى تقتضينا أن نكون جميعا جنودا قد أعدوا أنفسهم لاحتمال أعباء كفاح ضخم طويل المدى . ومن شأن هذا الكفاح أن تكون له ركيزة فى أعماق النفس . ولن تكون هذه الركيزة إلا إعداد نفوسنا بالتربية الروحية ، هذه التربية التى تتطلب صلابة النفس وقوة الاحتمال والقدرة على مواجهة الخطوب . ولن يتيسر هذا إلا بالتصوف الصادق .

نريد ذلك التصوف الذى تحس النفس فيه بالقوه أمام غزوات الاهواء والاستعلاء أمام الملذات والشهوات . هذا التصوف الذى يحررنا من إغراء الترف والجنس والمادة . ويدفعنا فى الحياة كراما نعمل ونجاهد ونواجه الخطوب فى سبيل غاية عليا .. هى من صميم الأمانة التى حملها الحق جل وعلا للانسان .. بعد أن ناءت بها الجبال .

الشخصية المصرية

فى فترتين من حياتنا التاريخية ارتطمنا بالأتراك ثم بالانجليز . دخلا بلادنا غاصبين ومحتلين . لم نقبل فى يوم من الأيام وصايتهما . وقاومنا بكل قوة بقائهما وسلطانهما مهما طال الزمن به ..

وجرت محاولات فى خلال هذه الفترات لوصم طبيعتنا المصرية بأنها عقيمة لا تنجب العبقريات ولا تظهر البطولات . وكان يستدل على ذلك برجلين مثل جمال الدين الأفغانى واحمد شوقى ..

ولكن تاريخنا الطويل ولا سيما فى العصر الحديث ملىء بالبطولات ومشحون بالعبقريات فى مختلف ميادين الحرب والوطنية والفكر .

يكفى أن تستعرض حياة عمر مكرم ومحمد كريم واحمد عرابى ومحمد فريد والجبرتى وعبد الله نديم وجمال عبد الناصر ، لتجد الشخصية المصرية واضحة بارزةقويه هيابه . فيهاالتصميم والكفاح والصلابة والعزم والمقاومة والتضحية والفداء والبذل .

ففى حياة كل فرد من هؤلاء - وغيرهم - زاوية من زوايا هذه الشخصية. وقطاع من قطاعات شخصيتنا الواضحة الضخمه البعيدة المدى والأثر فى مقاومة كل ما ارتطم على سواحل بلادنا من حضارات وحملات استعمار ومذاهب وأفكار وآراء ويكفى أن تكون الثورات التحريرية الفكرية والسياسية كلها خرجت من مصر ..

وأن غارتين ضخمتين أفسدتا وجه الحياة فى الشرق كله ثم تحطمت واحدة بعد الأخرى على ساحل المقاومه المصرى العتيـــد : هما حملات الصليبيين وحملات التتار .

وإن مصر هى التى حمت كل دعوة حق وكل صوت حر .. ويكفى أنه لولا مصر لما برز الأفغانى ولا الكواكبى .

وبعد الحرب العالمية الكبرى كانت الثورة المصرية هى الثورة الأولى فى سبيل الحريه التى تتابعت بعدها ثورات سوريا والعراق وفلسطين .

ولعل مما له أبعد الأثر فى إصالة الشخصية المصرية ما توارد عليها من حضارات ومذاهب وأقوام ، كانوا يأتونها غزاة ثم تصبغهم بلونها وتذيبهم فى بوتقتها .

فتوسط الموقع الجغرافى وخطره بين القارات الثلاث والبحار الأحمر والأبيض جعلها تقوم بدور الوساطة بين ثقافات العالم .

ونهر النيل الذى يجرى فى قلبها ويشق صدرها هو رمز على طابع الاستقرار فى الحياة ونعومة العيش .

والصحراء على طرفيها تحمى الوادى وتكون منه أشبه بغلاف الكتاب

ومصر الفرعونية هى التى اهتدت إلى فكرة التوحيد وأهدت العالم الحضارة الأولى . ومصر العربيـة هى التى حملت رسالة الفكر العربى وحمت المدنية العربية وطبعتهما بالعمق والإصالة .

وبينما كانت الأقطار توغل فى مذاهب مختلفه كانت مصر مذهب أهل السنه وهو المذهب الوسط ، وهى فى ذلك رمز الاعتدال وقاعدة التوازن .

وامتازت الشخصية المصرية بالوضوح فى الفكر والبعد عن التعقيد . وحب الفنون حيث بنت المعابد والهيا كل فى عصرها الفرعونى والمساجد فى عهدها الاسلامى .

وعرف الفن المصرى بالبساطة والأشكال الهندسية والاستقامة .

وعرفت مصر الألوان الواضحة وكرهت الألوان ذات الظلال والأضواء .

وعرفت الشخصية المصرية بالميل إلى الدين والحرص على التقاليد والايمان بحياة أخرى فيها بعث وحساب وجزاء .

وكانت المعدة المصرية تهضم كل الثقافات التى تأتيها من الخارج وتحول الصالح منها إلى كيانها وكانت مصر مقبرة الغزاة دائما ..

وامتاز الخلق المصرى بالعمق والحزن المرح وحب الدعابة والسخرية .

وظلت مصر دائما تحمل أمانة الحضارة والخلافة والقيادة فى المنطقة كلها وقد ذبلت الشخصية المصرية فى فترة من الفترات ولكنها لم تمت أبداً .

الشهداء ..

كم قدم الشرق من تاريخ كفاحه الطويل من شهداء .. كم قدمت بور سعيد والجزائر ومراكش وفلسطين ومصر وسوريا ، كم قدم العرب والمسلمون والمصريون من ضحايا فى سبيل حريتهم فى خلال هذا النضال الطويل منذ بدأت أعاصير الفرنجة تهاجم الشرق فى الحروب الصليبية فى تسع حملات خلال مائتى عام وصفت الحملة الأولى منها بأن الدماء - دماء العرب - كانت فى القدس تخاض خوضا .

وفى مأساة إخراج العرب من الأندلس ومحاكم التفتيش وأعمال التعذيب والتنكيل والتقتيل . كم ألوف ومئات الألوف منا ذهبوا ..

ومنذ بدأت الحملات الاستعمارية على الشرق .. قاومنا . وقاومنا بعنف

ومضينا نطالب بالحرية التى هى صميم كياننا .. وفى خلال ذلك استشهد كثيرون فى ثورات مصر والعراق والقدس والجزائر وتونس ومراكش وفى المعارك العاصلة بيننا وبين العدو الذى كان يصب حممه وناره وقذائفه على أصحاب الأوطان استشهد منا الوف . من الدم الزكى الطاهر النقى . من المكافحين المناضلين .

وكان المصرى العربى فى تاريخنا كله مثلا للبطولة والايمان بوطنه والتضحية وقد سجل مواقع حاسمة فى التاريخ كانت بعيدة الأثر فى حماية الحضارة والمدنية الانسانية . وقدم روحه دائما مستشهدا فى سبيل الحرب والحق وطالما تناثر دمه خلال المعارك على أرض تمارين والقرم . وعند خط الاستواء وفوق سفوح الجبال .

« والجندى » المصرى هو الذى صد غزوات الفرنجة وهجمات التتار ولعل أبرز مواقفه هذه معركة « جالوت » التى اندفع فيها قويا مؤمنا فسحق المقاومة التترية التى ظلت تندفع بقوة رهيبة مخترقا سهول آسيا دون أن تتمكن أية قوة حربية ـ على طول هذا الخط الحربى ـ من رد تيارها الضخم . حتى ارتدت أمام القوة المصرية التى هزمت هذه الجحافل هزيمة ساحقة فى هذه المرقعة . وبذلك رد هذا الإعصار عن الشرق وعن البحر الأبيض وعن الحضارة .

وكذلك كان الجندى المصرى المحارب قوى العزيمة صلبا . تمتلىء نفسه بالاحساس الصادق بأن الشهداء لهم حياة باقية عند الله .

وفى تاريخ مصر الحديث كان المحارب المصرى بعيد الأثر فى تحويل دفة التاريخ وكان أبرز مواقفه فى الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ ثم فى معركتى فلسين والقنال .

وهذه الدماء التى قدمها شهدائنا لا تضيع أبدا . إنها تروى أرضنا وتملأ قلوبنا حماسة وإيمانا لنكافح ونواصل ونسد الصف حتى تتحقق لنا الحرية كاملة

اندلاع القومية العربية

اندلعت القومية العربية بعد تأميم قناة السويس بصورة رائعة جبارة روعت الغرب وقضت مضاجعه وملأت عقول ساسته باحساس جديد رهيب هز هذه النفوس هزاً وأزعجها أيما ازعاج وجعل الاستعماريين فى كل مكان يتجمعون لمواجهة هذا الخطر الضخم الذى بدأ يأخذ صورة الحائط القوى العتيد . وليس شىء يزعج الغرب قدر ما تزعجه وحدة العرب وتعاقد خناصرهم وتآلفهم فى صف واحد . فى سبيل الوحدة والقومية .

إن هذا فى نظر الغرب هو الخطر كل الخطر فقد عاش الغرب أعواما طويلة تزيد عن الخمسين من الأعوام لا هم له إلا أن يفرق العرب ويوغر

صدورهم ويدس فيما بين كل قطر وآخر محاولا أن يوجد ثغرات لتوسيع شقة الخلاف والحيلولة دون التآلف . وتمزيق الوحدة . ذلك أنه يعرف مدى الخطر الذى يوجه إليه حين تتآلف العرب وتتوحد .

فلما أممت مصر القناة . ووقف الغرب محاولا أن يضرب مصر ، قامت الأمة كلها من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى .قامت كلها فى قوة وعزة تؤازر مصر وتقف فى صفها وتعلن وحدتها وتأييدها الصادق وتتأهب لتخوض معها المعركة .

وكان هذا إعلانا صادقا أكيداً باندلاع القومية العربية اندلاعا حقيقيا فى وحده الصف والهدف والغاية والفكرة ..

كانت القومية العربية قبل ذلك كلاما وأفكاراً ونظريات وخطط تعد ، ولكن تأميم القناة كان المحك الصادق الذى كشف عن الجوهر وأبرز مدى عمق الإيمان الذى يملأ النفس العربية .

وكانت هذه هى الصاعقة التى واجهت الغرب الذى ظن أن فى مقدوره أن يعزل مصر ، وأن يضربها ضربة مميتة ، وأن يقضى على روحها الوثاب . وأن يحطم هذا العمل الضخم الذى تتجاوب له الأمة العربية من أقصاها فى كفاح مستبسل وتضحية صادقة وإيمان أكيد بهذه الوحدة .

لقد عاش العرب « جيلا » كاملا من الزمان ينادون بالوحـــدة العربية ولا يجدون السبيل ويطالبون بمنقذ العرب ولا يجدون الرائد .

كانت هذه الدعوة أملا تفيض به القلوب . وحلما يملأ النفوس. كان الكتاب والمفكرون يبحثون ويدرسون . ويرسمون خطوطا هنا وهناك للصورة التى يمكن أن تكون عليها هذه الوحدة .

وكان الاستعمار ينظر ويسخر . وهو يعرف أن هذه كلها ما هى إلا ترهات تطوف بأذهان طائفة من المتحمسين الخياليين .

ولكن الأمر الذى كان وهما وخيالا وحلما ، لم يلبث أن أصبح حقيقة واحدة ، عندما أخذ طريقة إلى عمل ضخم موحـــد ، وكان كفاح الجزائر والأردن والبحرين رمزاً على هذا العمل المجيد ، ثم جاءت روابط الوحدة والعمل والقوة والسلاح والدفاع بين مصر والسعودية والحجاز واليمن أدلة أكيدة على أن القومية العربية تأخذ طريقها الصحيح .

وهنا بدأ الاستعمار يتلفت إلى أنصاره فاذا بهم ينصهرون تحت مطارق اليقظة الجديدة ويذهبون ..

وأعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس فهز أركان الاستعمار وأحدث بها التصدع والتشقق .. فآلت إلى السقوط وأوشكت على الانهيار .

وأعلنت الأمة العربيه تأييدها وتضامنها الكامل .. ومن هنا كان مولد هذه القوة الجديدة : قوة العرب .. أمة العرب التى عادت لتحتل مكانها الواضح على هذه الأرض . فى هذا المكان من العالم .. إنها كانت هنا مبعث النور والحضارة ومشرق الضياء والروح .

ومضت عليها فترة من الزمن ، كما مر الزمن على كل شىء .. فترة حالكة السواد جهلت خلالها طريقها الحق .. فتأخرت ووطأت أكتافها أقـــدام المستعمرين الغاصبين ..

ولكنها اليوم قد استيقظت وتنبهت ومضت تستعيد مكانها تحت الشمس وأخذت تحطم القيود من سواعدها .. وترد العار عن كيانها وتستعيد ما تملك حرة فيه تتصرف بملأ حريتها وإيمانها وما ترى أنه الخير لها ..

ودهش الغرب لهذه اليقظه . وبلغ به الدهش مداه .. وأخذ يعد خططا

وأساليب ومؤامرات ــ شأنه دائما ــ ليسترد مكانته المفقودة وعرشه المسلوب وتاجه المداس فى الوحل .. ومضى يحاول ما يشاء من محاولات التآمر الدنيئة الماكرة الظالمة .

ولكن واحدة منها لن تنطوى علينا .. فقد تيقظنا وعرفنا حقنا . وأعددنا لحقنا قوة تحميه . وعتاداً يرفده . وعقولا وقلوبا نقية خالصة طاهرة لا يستطيع الغرب أن يغريها ولا أن يخدعها ولا أن يذلها .

إننا نستطيع أن نقول أن القومية العربية قد اندلعت نارها .. ولن تنطفىء هذه النار إلا بعد أن تقضى على الاستعمار كله وتكتب خاتمته وتسدل الستار عليه جسداً عفنا لا روح فيه ..

ولم يعد هناك مفر من تصفية الامبراطوريات . وإنهاء الاستعمار فى العالم كله . هذا هو الفجر الذى بدأ يبزغ فعلا . وهو نفسه المأساة المقلقة للغرب حين يرى سلطانه يتقلص يوما بعد يوم وينطوى لحظه بعد أخرى .

إن الاستعمار كان حريصا على أن يربط بينه وبين حكام من طبقة معينة اصطنعهم وربّاهم على موائده وصاغهم على هواه . وعلمهم فى مدارسه وأرضعهم حبه والإعجاب به والإيمان بدوره فى « تحضير » العالم وغفل عن الشعوب التى هى صاحبة الحق الأول والسلطان الأكبر فى حكم نفسها وفى تحرير أرضها . لأنها هى التى تدفع ضريبة الدم وتقدم الفداء فى سبيل حريتهــا وتتقدم فى زحوفها مواجهة الحديد والنار بنفس مؤمنة بالحرية والكرامة والعزة . وهى تنتصر دائما مهما كانت معزولة عن السلاح . تنتصر على قوى البغى والعدوان ومن ثم فلم يعد لهؤلاء الزعماء والحكام الذين اختارهم الاستعمار قوة تمكنهم

من الاستمرار فى فرض سلطانهم الظالم على الشعوب أو استمرار سياسة العنف والكبت والضغط مهما ظاهرهم المستعمرون وأيدوهم .

ولقد شهدت الأعوام الأولى من النصف الثانى للقرن العشرين من هذا الكفاح صورا رائعة قوية تدل على مدى عمق الإيمان بالوطنية . ففى كل مكان من آسيا وأفريقيا — وهما الدولتين الشرقيتين — المستعمرتين اندلعت ثورات التحرر ونجحت هذه الثورات واستردت أرضها و تقلص الاستعمار وانطوت صفحته ثمه .

النيل : النهر الخالد

هذا النهر العظيم الذى عبده أجدادنا وقدموا له القرابين والهدايا . وأطلق عليه بعض الكتاب « النهر الإله » ما أحراه بأن يكون له فى التاريخ هذا المكان الخطير الرهيب .

لقد قالها « هيردوت » فمضت ترددها الأجيال « مصر هبة النيل » .

و « حابى » هو إله النيل عند قدماء المصريين . وهو الذى يجرى النهر العظيم بأمره . وهو كما صوروه فى تماثيلهم ونقوشهم متربع على عرشه متوج رأسه بأزهار البردى المفتوحة .

وقد كتب على أوراق البردى : « أيها الفيضان المبارك : قدمت لك القرابين والذبائح وأقيمت لك الأعياد العظيمة وذبحت لك الطيور واقتنصت

لك الغزلان من الجبال . وأعدت لك النار الطاهرة وتدم لك البخور والنغم السماوية والعجول والثيران فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك .

وفى العربية « النيل » كلمة مشتقه بمعنى الأخذ والحصول على الشيء . لأن النيل نوال السماء . وقال القدماء أن النيل مولود من « رع » الشمس . أى أن النيل هو ابن الإله الأكبر وقد وجد على طول ساحل النيل معابد متصلة كانت تقام فيها الصلوات للنيل ومن أهمها قصر أنس الوجود .

وقال بوسينس السائح الإغريقى الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد « يحتفل المصريون بعيد الإلهة « إيزيس » وهى تبكى زوجها وأخاها أوزريس . وفى هذا الوقت يبدأ النيل فى الارتفاع .

وسبب هذا القول على حد قول المصريين أنفسهم ، هى الدموع التى تذرفها الإلهة حزنا على شقيقها فهى التى تملأ مجرى النيل فيطغى الماء على جانبيه ويروى الأرض وقد حدث عندما استولى الرومان على مصر أن رشا الحاكم الرومانى شخصا للذهاب إلى هيكل مدينة « قفط » والدخول إلى مخابئه لرؤية ما يجرى هناك ولسماع الأسرار المقدسة فذهب الشقى وتمكن من الدخول واستراق السمع ثم رجع . فأخبر بكل ما حصل ومات لساعته ..

وقد بقى هذا الاعتقاد رغم تدمير معابد إيزيس وانقراض الديانه المصرية إلا أن دموع إيزيس استبدلت بنقطه مباركة تنزل من السماء فى الليلة ١١ من شهر بؤونة حسب التقويم القبطى . وذلك قبل بدء فصل الصيف بأربعة أيام ويرتبط عيد النقطة هذه ارتباطا وثيقا بعيد سيدنا ميكائيل حيث كان النيل تحت رعايته فاذا كانت الليلة السابقة لعيده ـ كما تقول الكتابات القبطية تجتمع الملائكة فيتقدمون إلى الحجاب الذى يفصل الله جل جلاله عن جميع الكائنات وهناك لا يستطيعون الدخول ويتقدم ميكائيل فيخترق الحجب ويلقى بنفسه أمام رب العزة ويدعو بزيادة النيل ولا يرفع رأسه حتى يجاب طلبه .

وقالوا إنه في العام الثالث من حكم رمسيس عام ١٣٠٧ قبل الميلاد تخلف النيل فلم تظهر طلائعه في شهر أبيب ولا في شهر مسرى وامتد به التخلف إلى شهر توت فجأر المصريون بالشكوى وذاعت خرافة أسر النيـــل بأمر ملك الأحباش عندئذ فكر الساحرون في إهداء النيل عروس خمرية اللون عيونها سليلة . ونادى المنادى بأن النيل لن يعود إلا إذا قدم له هذا الفـداء . ثم رأى صبية تلقى نفسها في اليم وإذا بالنيل يزيد فجأة حتى يبلغ قمم الشواطىء علامة على رضاه ولما جاء العرب إلى مصر وقيل لهم عن هذه النبوءة رفضوها وألقى عمرو بن العاص ورقة إلى النيل دعاه فيهـا أن يفيض بأمر الله وقالوا إن نجم الشعرى اليمانى يبدو واضحا في السماء أيام الفيضان كل عام .

هذا ما سجلته الأساطير والأقاصيص وهو مادة رائعة تصلح لعمل فني خالد ضخم يتناسب مع عظمـة النيل الذى لم يحرز من مفكرينا وأدبائنـا وشعرائنا إلا كسبا قليلا هو عبـــاره عن بضعة قصائد لشوقى ومحمود حسن اسماعيل وغيرهما .

وهو قليل جدا بالنسبة لما كتبه الشعراء والكتاب في مختلف بلاد العـالم عن الأنهار التى تقل عظمة وروعة عن نيلنا . بل إن هذا لا يساوى المؤلف الضخم الذى وضعه إميل لدوفيج عن النيل .

وقد ظلت منابع النيل مجهولة حتى القرن الثـامن عشر عندما استطـاع جيمس بروس الاسكتلندى أن يصل إلى بحيرة تانا عام ١٧٧١ فظن أنه قد اكتشف منابع النيـل . ووصل اسبيـك إلى بحيرة فيكتوريا عام ١٨٥٨ واكتشف صمويل بيكر بحيرة البرت نيانزا واكتشف استانلى بحيرة إدوارد عام ١٨٨٩ .

ولا شك أن النيل : ذلك النهر الخـالد هو مجد من أمجادنا وهو مصدر

الخير فى أرضنا الطيبة . وقد كان العامل الفعال الذى أنشأ الحضارة العالمية الأولى التى كانت مقدمة الحضارات الانسانية والتى بهرت الدنيا بما وصل إليه الفراعنة من علم وفن ولعل هذا هو الذى حمل الفراعنة على أن يرفعوه إلى مقام الألوهية فيقدسوه ويعبدوه ويبلغ طول نهر النيل ٦٥٠٠ كيلو متر ويمر بالحبشه وأوغنده والكونغو وكينيا وتنجانيقا والسودان ومصر .

وقد وصف النيل بالصبر والاتزان ورسمت له اللوحات الفنية التى تعبر عن عظمته الخالدة الممتدة مع القرون والأزمان .

رأس الحربة

« انهض .. فقد آن لآدم أن ينهض وها هى ذى الكواكب
قد جاءت تسجد لهذه الحفنة من التراب . أنظر إلى نفسك فان
قوة الطوفان كامنة فيك » « محمد إقبال »

العرب : أمة وسط بين القارات والبحار والطقوس . . . كانوا طوال تاريخهم المجيد قبل الإسلام وبعده همزة الوصل بين الشرق والغرب . ووساطة الأمم والشعوب .

وورث العرب بعد الاسلام ملك الفرس وملك الرومان . فلم يكونوا ظالمين أو غادرين . كما فعل الرومان من قبل والغربيون من بعد .

حرروا هذه الشعوب من ظلم الأكاسرة والأباطرة . وعاملوا النـــاس

بالرحمة والعدل . دون استغلال أو سيطرة . وكان مثلهم الأعلى الخير والإخاء لم يفرقوا بين الأجناس . ولم يرفعوا أمتهم فوق الأمم . ولم يجعلوا للون البشرة كبير مقام ولا أثر فى المساواة أو الحقوق . وكان تقليدهم الباهر : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود »

حاربوا الحكومات الطاغية . وأعزوا الشعوب المظلومة وحروها من الظلم . لم يفرضوا عليها ما يحملون من دين ولكنهم جعلوا الناس بالخيار ولم يعرف الناس منهم سياسة « الأمير » التى كانت قوام حضارة أوربا .

لم يكن فى قادة المسلمين من عرف بالطغيان التى عرف عن قادة أوربا . كانت لديهم القدرة على كبح جماح غرائزهم وإنكار ذواتهم .

ولم يعرف منهم ما عرف عن الاستعمار الغربى من سفك الدماء وحب التعذيب وإزهاق الارواح وإبادة القرى والقبائل وحرق البيوت والتمثيل بالموتى والإجهاز على الجرحى والفتك بالأطفال والشيوخ والنساء .

وترك المسلمون الفاتحون البلاد لسكانها الأصليين يديرونها وبذلك بقيت خيرات الأرض لأهلها . فى حين حال الاستعمار الغربى بين أبناء البلاد وحكم بلادهم وأضاع حظوظهم فى فرص العمل .

وكان أبرز معالم انتشار الاسلام انعدام الاكراه وانطلاق الحريه فلم يكن من شأن المسلمين خلق أسباب الخصومة وإثارة الخلاف بين القبائل .

*

ولقد حاصر العرب أوربا من الشرق والغرب وأوغلوا فيها وتركوا بعدهم آثاراً قوية لم يستطع الزمن محوها ...

اقتحم العرب الأندلس وأوغلوا فيها ومنها عبروا إلى فرنسا وبلغوا نهر

الوار ومن ناحية أخرى هاجموا إيطاليا وبلغوا روما . أما فى الشرق فإن الأتراك المسلمين دخلوا أوربا وبلغوا أسوار فينا .

وكان المسلمون قد أطبقوا على القارة الأوربية من العرب وكادوا أن يقتحموها لينفذوا إلى دمشق من جانبها الآخر لولا أن رغبت قيادتهم عن الفتح الذى كان قد بدأه « طارق » وأوغل فيه « موسى بن نصير » الذى كان يحلم بأن يشق قلب أوربا ويصل من الناحية الأخرى .

وعلى شواطىء المحيط الأطلسى وقف المسلمون ينظرون إلى البحر الذى تغيب فيه الشمس وتشرق . يدفعون حوافر جيادهم فيه ويسألون الله أن كانت ورائه أرضا ليذهبوا إليها ، حتى جاء اليوم الذى عبر فيه طارق وحرق مراكبه لكى يقول لأصحابه إنه لا مفر من الاندفاع فى قلب الجزيرة .

غير أن معركة اقتحام أوربا من الشرق تأخرت كثيرا حتى جاءت فى نفس اللحظات التى بدأ الاسلام ينحسر فيها عن الاندلس .

وكانت القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين ، قبلة المسلمين منذ أن وصلت طلائعهم إلى الشام واجتاحت ملك الرومان فيه .

ولم يطل تطلع المسلمين إلى غزو الدولة الرومانية الشرقية إذ وجهت إليها حملتين إحداهما بقيادة يزيد بن معاوية والأخرى بقيادة مسلمه بن عبد الملك

ثم توالت عمليات الحصار فى الشواتى والصوائف سنوات متوالية واتصلت الحروب فكانت آسيا الصغرى منطقة صراع دائم . أغار العرب على حدودها من البر والبحر وكان على رأس هذه الغزوات فدائيون آمنـــوا بالرباط فى الثغور .

*

دولتان كبيرتان أجتاحتا الشرق بقوة الحديد والنار ثم صهرتهما الحضارة

العربية فقد خرج المغول فى أربع اتجاهات أساسية واستطاعوا فى فترة قليلة أن يبسطوا حكمهم على المنطقة الواقعة من شواطىء المحيط الهادى إلى أواسط القارة الاوربية إلى أواسط البحر الابيض .

وقد اتجهوا نحو الصين حتى وصلوا بكين . واتجهوا نحو الهند . واتجهوا نحو أوربا فى سهول روسيا . واتجهوا نحو الشرق الادنى جنوب غربى آسيا ووصل هولاكو إلى بغداد عاصمة العباسيين فخربها وأحرق معالمها عام ١٢٥٨ ميلادية ثم اندفعت حشوده نحو سوريا ومصر ، فخرج له جند مصر بقيادة « قطز » إلى « عين جالوت » فى أطراف فلسطين الشمالية ووقف يصد المغول ويحطم شوكتهم فى أول معركة كبرى انكسر فيها جيش المغول وأنقذت مصر الحضارة والاسلام ولم يلبث المغول أن انهزموا أمام قوة الاسلام نفسه فانتشر بينهم وحملوا رايته وكانوا أداة إذاعتـــه فيما وراء النهر وأطراف بلاد الصين الشمالية .

ولقد طوت البوتقة العربية الاسلامية الاتراك كما طوت السلاجقة والتتار من قبل .

ولقد مضى العثمانيون باسم الاسلام وبقيادة عثمان يندفعون صوب بحر مرمرة والبحر الاسود ثم عبروا الدردنيل إلى شبه جزيرة تراقيا وامتدت الفتوحات فى أوربا الشرقية حتى وصلت اليونان . وفتح محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٢ إذ بدأ محاولته باقامة حصن على بعد سبعة كيلو مترات منها وأطلق عليه « روملى حصار » .

وبدأ الحصار فى ٩ أبريل ١٩٥٣ وتم الفتح فى ٢٩ مايو ١٩٥٣ .

ومضت الفتوحات إلى الصرب ، وشبه جزيرة الموره (١٤٧٩) وبلغراد ١٥٢١ والمجر وحصار فينا (١٥٢٦) .

وبلغ التوسع العثمانى مداه فى عهد سليمان القانونى . أربعون ألف ميل مربع أخضعت فى ثلاثة قرون .

ولم يتوقف الفتح إلا ليكون دفاعا ضد عدوان المعتدين ..

ولقد عاشت أمم فى التاريخ العربى على الفتح والغزو والجهاد فى سبيل الحرية ومن هؤلاء « بنى حمدان » ملوك حلب فى القرن الرابع فقد كانوا محاربين للروم لا يتوقفون وكان لسيف الدولة وقائع خلدها المتنبى فى شعره .

وكان انتصار السلاجقة وتوسعهم من العوامل التى أقلقت أوربا ،وكانت عاملا رئيسيا للغزوات الصليبية .

ولكن الخطر الفرنجى كان متصلا لم يتوقف وبينما كانت جيوش المسلمين تطرق أبواب القسطنطينية من المشرق وترمى أسوارها بالمنجنيق ، كان الفرنجة يحطمون قوة العرب فى الأندلس ويسحقونها ويقدمون العرب لمحاكم التفتيش حيث يحرقون ويسلبون فى أسلوب ظالم عنيف .

ولكن العرب لم يستسلموا مطلقا . لقد قاوموا بكل عنف مدى قرنين كاملين .. ومن ذا الذى ينسى مقاومة أهل المغرب للاسبان وأعمالهم البحرية الضخمة دفاعا عن الأوطان . . حيث انزلوا بأعدائهم كثيرا من الأذى وحطموا أساطيل الاسبان والانجليز والهولنديين الذين كانوا قد بدأوا يهاجمون الشرق ..

وقد اتسعت رقعة « القرصنة » للمغرب ، الأمة البحرية الأصيلة ، وكانت سفن المسلمين المغاربة تزداد دائما قوة وعتادا بما كانت تلقيه بلاد الأندلس من طوائف وجماعات المسلمين الهاربين من اسبانيا والذين كانوا ينضمون ليدركون ثأرهم من الاسبان .

واتصلت هذه الهجمات على سواحل اسبانيا وفرنسا حتى أزعجت هذه

الدول وكان عروج بن يعقوب هو القائد الأول لهذه المعارك سنوات طويلة

ولذلك لم ينته ميدان الحروب الصليبية فى الشرق . بل امتد إلى المغرب حيث ذهب لويس التاسع بعد أن أطلق سراحه من سجن المنصورة ليشن حملة صليبية تاسعة كانت طائشة فقتل هناك .

واقد قاوم المغرب الاسبان والبرتغاليين المستعمرين والفرنسيين الذين اتجهوا نحوها بعد حملة لويس وما زال المغرب يقـــاوم فى عنف وإصالة وثقة بالنصر .

ولقد ظلت هذه الروح الصليبية كامنة اتعود فى صورة الاستعمار بعدأ كثر من أربعة قرون . وفى هذا يقول جمال الدين الأفغانى ، إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد . وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ،

واليوم يعود العرب ليأخذوا مكانهم مرة أخرى ليكونوا القوة الموجهة التى تقف كشفة الميزان ورأس الحرية فى وجه الاستعمار والاستبداد والظلم لتستأنف رسالتها الخالدة فى سبيل تحرر الانسانية وأداء واجبها فى حمل لواء الحضارة .